ليث دحام

# رواية

# الطريــق المــرّ

2016

( كل شيء في حياتنا يتغير فجأة او تباعا مع الزمن , والدقائق تمر مؤلمة بين دفتي وطن .. هل نملك منه شيء ؟ )

... المؤلف

الى الذين غادرونا مبكرا ..

الى كل ضحيا الاوطان ...

اليكم حيثما كنتم ....

## الطريق المرّ ...

# 1

مثل شجيرة حنظل بمرارتها وسقمها , نتشبث بآخر لحظات السعادة , وفي صدورنا تعوم لجّة الاحزان .

ايه .. يا هذا ,, فالغدر يقابله الوفاء .. هذا في العقل والمنطق .. اذا شئت , فثمة حمام ابيض وافاع رقطاء , ازهار بلون السماء وشياطين بوجوه الرحمة , اللسنة طير في اجساد سباع , وثعالب بوجوه ملائكة , وقرود بهيئة اسود .. تغير كل شيء هناك , وكل شيء في دوامة الصبر , وصبر الشجاع في مكيال الجبناء .. خيانة , الصمت عن قول الرذيلة تخاذل , والكلام الفصل بات كفرا والحادا , اليس هذا قانون حياتنا ..؟

معتقد وايمان قال سيدنا , وانطلق كبير القوم , لبيكم .. لبيك , ولبيك هتف لنفسه بامتعاض .. يا هذا الوجع الذي اجتاح القلوب والعقول , لبيك هتف الشيخ العظيم , ثم ذاعت ابواق الغباء وانطلقت ايادي الاثم تعوم , ايه يا سيدنا .. واشعل سيجارة , ينفث انفاس الصبر المرّ , انفاس الحنظل , ويلك يا انا , ويلكم من هذا الهتاف الذي شق السماء وزلزل ارض الابرياء , ويهذي في الكلام , ثم يهذي لنفسه ؟ .. من هناك ذاعت ابواق اخرى من طرف العوام .. لبيك يا ماركوس , لبيك جيفارا , لبيك معتصماه لبيك يا كسرى , ولبيك هبل ..

لبيك ايها الوطن العظيم ثم صمت يتأمل تلك الضجة ... اصوات صدعت المكان واحرقت الكون بضلالها , يوم ايقظت سباع الغدر من اوكارها , يال ثارتنا , يال ثارات دماء الأمس , ويلكم ايها العرب ... وياله من عار .. صرخ طفل ثم سقط مضرجا بالدماء , لا يزال الهتاف يعلو في كل زوايا المكان , اقتلوهم , واحرقوهم , مزقوا خيامهم واصهروا حتى العظام , ثم سقطت القذائف عمياء , نفرت الطيور من اعشاشها , احترقت , تناثرت اجنحتها في المكان , فر اهل المدينة رعبا وخوفا , اطفال نساء شيوخ ومرضى , والنيران تلتهم المكان , القذائف تحمل شعار لابد ان ننتصر , تشفي غليلها مطرا , يهتف الجندي معصوب الرأس بقطعة قماش خضراء , لبيك .. انت ربي , دكوهم دون اي احداثيات او تحديد هدف , كلهم اهداف , امطروهم بحق ..مولاكم , يا سلالة الطهر هذا يوم انتقامكم لواقعة الضيم , يا راياتنا قطّعي اعناقهم , افيضي دماء الابرياء , ثم غطت المدينة في سحابة من دخان , وفاضت السماء بزخات القنابر والصواريخ تسقط في اي مكان , هناك تهاوت ابنية من رشقة مدافع , احجار تناثرت وسدت الطرقات , نيران مشتعلة , اشلاء ضحايا تناثرت في حدائق بيوتها , هرعت عوائل تجري على غير هدى تريد الفرار

لجأت نحو المخلّصين , خلصونا من الطغاة بحق قدسيتكم يا ابناء الوطن , يا الله هؤلاء قومنا جاؤا لينقذونا من قبضة الكفر .. وهتفت امرأة تحمل طفلها , خلصونا من ظلم الجبناء , كان الضابط يرفع فوق هامته راية حمراء , زجر الجند باوامره , افتحوا النار ... افتحوا النار فانهم كاذبون , هؤلاء

مفخخون , انهم صبابة السوء ... سيدي هناك اطفال ونساء .

زجره بينما يتامل خواتمه التي اهداه اياها سيد القوم وباركه , نفذ يا أبن العاهرة ؟ , وفتحت النيران فجأة فتساقط جمع من الضحايا الابرياء .

هنالك صرخت ضحية قبل موتها , الى أين يا الله ... الى اين ..؟ الى اي مكان , قال احدهم وهو يقذف اطفاله في عربة .. نحو الجسر هيا اسرعوا , ابتعدوا عن الطريق , ها قد جاء المحررون ,ها .. صاح فريد متاملا ذلك اليوم .. اي مفاجاة جائكم بها المحررون , يا الله ما كل هذا , ثم ترنم بصوته كالذي يهذي شعرا ..ها قد دقت ساعات اصفارهم , ونفذ صبر انتظارهم لسنوات , عقود وقرون , ها .. طال الانتظار وطالت معها اللحى , نالت المطالب يومها , واثخنت حتى الدماء , فروا يا اهل مدينتي , الذنب انكم ابرياء .. ثم تجلت طائرات الليل خفافيش تقصف في ظلام , اتركوا اهل اللحى , اضربوا في عمق الضحايا , هذه مدينة السوء امحوها عن بكرة ابيها , كيف بلغت الثلاثين , واليوم تزهوا بالنقاء , اقتلوهم واقطعوا نسل الانبياء , هؤلاء صبابة للكفر , كيف يوحدّون ربا , وينسون اطهر ما ضاع من الدماء , هذه قصيدتي لا تنتهي , فيها الف وياء , صرخ ثم انتحب وبكى , حيث اقفال القصيدة موصدة , هيفاء .. كانت مفاتيحها سقطت اولى ضحايا الجبناء .

تلك الطائرات كانت قد القت براميل متفجرة على المدرسة تحت ذريعة , ان الارهابيون يتخفّون فيها , فصبت جام غضبها على مبنى المدرسة مخلفة العشرات من الضحايا عوائل باطفالها ونسائها وشيوخها , كانوا قد فروا الى الضاحية الشرقية للمدينة ليقضوا ليلتهم في اعدادية صناعة الخرجة , والتي غدت في تلك الليلة ترابا بمن فيها , الا قليلا من الجرحى نقلوا الى بغداد وكركوك ..

بعضهم مات في الطريق وآخرين رقدوا بجراح بليغة انقطعت الاخبار عنهم فيما بعد , انتحب فريد لبشاعة الجريمة , أسفا على حبيبته هيفاء , حيث كانت من ضمن العوائل التي نزحت الى مبنى المدرسة في تلك الليلة ..

حبيبتي كيف قتلتك يد المخلصين المحريين , ثم في نشيج كانه يعاتب احدهم بهتاف .. اي المخلّصين انت يا ذاك .. ادعوك , في ذروة المحنة , ايها المنقذ الذي يدعّون , انت يا هذا , كيف انتهكت الاعراض تحت وشاحك , وذبحت الملائكة بسكين رحمتك , اي بصمة عار على جباه الغادرين , واي ندبة ضيم في قلوب المكلومين , بحق تلك الرايات ان كنت تقيا , هلا احرقتهم بنيران حقدهم وبغيهم وظلمهم وشركهم وعماهم , الا تنصت فتجيب ...

ثم صمت يمسح الدموع عن وجهه كالذي ينصت الى جواب ..

لصمتك الطويل , صمت الارض التي نبت بذرها خلف سماء الحالمين بنور الشمس , عصافير تبحث عن هبة نسيم لتنقي

اجنحتها من غبار الحروب .. الكل على ما نبت عليه نباته , ونشأ من جذره فروعه , يوم سلط الظلم سياطه , من جبروت الماضي يعيد نفسه كرة ثم اخرى , ها انت تعيدها الف مرة , الخير قادم , السلم على الابواب , ولا جديد , لا جديد غير نار ودماء .. ثم استفاق لوخزة خاطر عميق ..هل ذكرت شيئا عن الوطن ؟

**2**

كانت خطواته بطيئة ومتثاقلة , وهو في طريقه لارتقاء الجبل الكبير , تهمس في مخيلته سمفونية حزينة على اوتار زمن حافل بالخسارات والهزائم , مرت ليال ثقال على مأساته , ولا زال يبتسم امام ذلك الالم , وكلما ضاقت الذكرى في صدره , تأوه لحزنه , مستبعدا كل اثار الواقع ليبحر بذاكرته نحو ماض كان يعده الاجمل . .

.. الهمة وقوة العزم هي الشباب , وليس حداثة السن .. هذا ما كانت تقوله جدتي سعدة الحسن , وهي تستقبل جدي جبار الضاحي , عائدا من السوق يحمل فوق كتفيه (تغارين) من الحنطة , زنة كل واحد منهما عشرين كيلو غراما .. هذا الحدث مر عليه اكثر من ثلاثين عاما , كنت يومها لا ازال صغيرا في بيت الجد , ولكنني فهمت وادركت امورا كثيرة وكبيرة , العزيمة وقوة الارادة والتحدي .. لا اظنك ورثت منها شيئا يا فريد ؟

تنهد بمرارة ... الارادة والعزيمة في النشأة الاولى للانسان , وانت انسان يا فريد , ثم فكر ايضا .. العرب قالت قديما , المعدة بيت الداء , وداء شعوبنا العوز والجوع , جاعت حتى تيبست امعائها , بفضل شرذمة من الحكام الفاسدين .

ثم فرك براحة يده على موضع المعدة كالذي يتحسس جرحا اصابه , واردف ...

لست متحمسا لهذه الفكرة , فكل شيء بات يبدو طبيعيا , مشاهد الجوع والتشرد والقتل اعتدنا عليها , وصور دماء الابرياء تلطخت بها الطرقات والجدران وحتى السماء ,

وشاشات التلفاز التي تناثرت عليها اشلاؤنا , وكل شبكات الاتصال في العالم , بعد ان اصطبغ وفاض تراب الوطن بدماء ضحاياه ... العالم فريد .. يا فريد , قال لنفسه باسف .. العالم المزعوم يتابع باهتمام تلك المشاهد المروعة بينما يحتسي فنجان قهوته الصباحية كل يوم , ولسان حاله يقول , مجرد عرب , واعراب وعجم , هذا ما اقترفته ايديكم , ليزيد فيكم ذلك الدمار والقتل , حتى تفرون الينا , اولسنا باسيادكم واسياد ثرواتكم وارضكم , شئتم ام ابيتم هذا هو الواقع , بل زد على ذلك اننا نحدد لكم طقوسكم وآلهتكم التي تعبدون , عودوا الينا هلموا بذلك خلاصكم .

ثم توقف لصخرة بالزتية سوداء اعترضت طريقه , فاغمض عينيه ليستغفر الله ويتعوذ من شر الناس , ثم نظر نحو قمة الجبل , مصرا على بلوغها , يجتر خطواته على ايقاع ذاكرة لا تنطفيء ولا تفتر ولو للحظة واحدة ...

انا لست من الذين يعيرون اهمية كبيرة لموضوع المعدة ,فقد اعتدنا عليها منذ امد بعيد , خصوصا لمن يتهم نفسه بالوعي والادراك , او قل , انه يدعي على نفسه بانه يقرأ ويطلع على تفاصيل ذلك الواقع المرير , او لانه يفهم بعدا من ابعاد اللعبة القذرة في هذه الدنيا , المهم الان عندي الذاكرة والعقل وهما محط بيت الداء , كما انهما منفصلان تماما عن بعضهما , فالذاكرة محل كل ذكرياتي منذ الطفولة وحتى هذه اللحظة , بينما العقل هو ادارة الافكار وتصرفات الجسد , وكم صادفتني رؤوس لاتحمل في جوفها الا ذاكرة الطعام والنوم , هه .. يا لجنوني ؟

ثم ضحك ساخرا لفكرة الجنون , وهو لا يزال يتابع الطريق الضيق على حافة الجبل الكبير , لا يعير اهمية للهاوية الممتدة الى جانبه .

3

الاشياء التي تسكن الوجدان , نقش على حجر , لا تزيلها الحوادث ولا الاعوام , الطفولة وصور لوجوه لا تنمحي بتقادم الزمن , بل تتقد في الذاكرة كلما مر طير في سماء غربتك .. يا هذا اولست انت , انت ؟ ذكرياتك تثير في وجدانك دوامة حنين , تلفك وتسجّي بجسدك على رخامة الاحزان , ثم تغمره حتى يبلغ نشوة الالم بسياط الاشتياق , و انا اليها في دوامة اشتياق ...

ثم ازال من زوايا عينيه قطرات راحت تنداح في تدفقها , لم يعد قادرا على اخفائها فبقيت اثارها تلمع على خديه .

ينظر بعيدا نحو تخوم المدينة , حيث القمم الشواهق تحيط بها من كل جانب , والمدينة تتباين على السفوح التي تطوقها غابات حرة وبساتين , بينما يغيب في غواية ذكرى مدينته الاولى .

هي لا تزال متاخمة لنهر دجلة منذ ان خلقها الله وبسط تربتها , ولكنها بعيدة , وعميقة في غور ذاكرتك ووجدانك , تكريت .. قالها بلهفة , تكريت يعني ( غابة السحل , ومحلة الحارة , وتل السكن , والسوق القديم , وحي القلعة والخّر , والخسفة , وشارع الباشا , وحي شيشين ) احياء ومشاهد اخرى منها ما تم تجريفه في زمن مضى , ومواضع اخرى خربتها يد الهمجية العابثة , همجية عصر الانتقام , ليبقى جامع الاربعين شاهدا على جريمة الحقد والتعصب والكراهية , ثم ولا اولئك الاوغاد الى غير رجعة , وجائت يد التحرير التي مسحت احياء

سكنية باكملها , لا ضير ..هه , لا ضير في ذلك , يا سيدنا .. ثم بكى ؟

لمن تشتكي هي الامها وجراحها .. قال , بينما يسير على حافة الهاوية كالذي فقد في التو عقله , مدينة للنهر خلقها الله , للسعادة , مدينة للحب , تحتضن الطبيعة مثل عاشقين , هي كانت , ولم تزل بريئة , غافلة , واهلها حراس دجلة , عيونهم لا تنوس في غفوة الا على شاطئه الجميل , حتى غدوا يسافرون اليه ويشدون الرحال وفي جيوبهم بطاقة دخول , يال زمن الظلم , يال زمن التفاهات .

كانت الافكار تثور في ذاكرته , ويحزن كلما ذكر حال المدينة وما حل بها من خراب , وما وقع على اهلها من حيف وظلم على مر الزمان , ولكنه كان يداوي تلك الجراح بذكرى احيائها وضواحيها ونهرها وبساتينها , واهلها الطيبون الاوائل , وبيت الجد ينبض في عروقه , يراه قائما بين عينيه اينما حل وارتحل ..

بيت الجد , بيت شرقي الطراز , متواضع في عمارته , يمثل انموذجا لبيوت المدينة , كان على تخوم تلك التلال المطلة على نهر دجلة , يقطع بينهما بعض زروع وبساتين , واسع الفناء يتالف من خمسة غرف , يتوج وسطه نخلة كبيرة , جدرانه الطين , وسقوفه جذوع اشجار دثارها حصيرة من سعف النخيل , وعنوانه الرضا بما قسمه الله وانزل عليه من بركاته .

... لم ترث عن جدك الشجاعة والرجولة لتقف بوجه عصابات السراق , والمجرمين يا فريد , ولا تمكنت من خلال لوحاتك واراءك , ان تجمع جمهورا ليقف الى جوارك ويدعم افكارك , انصاف الحق ومقاومة الظالمين , والثار لدماء الابرياء , وهيفاء , وانت .. انت نعم وكل شباب ورجال المدينة , هكذا بقيتم في خضوع , تخشون مواجهة الظالمين , تخشون الموت وتخافون رصاص الجبناء , ايه يابن ابيك وجدك ... قالها بحسرة , لو امتلكت قطعة سلاح , هكذا بقيت منكس الرأس مثل راية خسرت معركتها وغدت في ذاكرة النسيان .

ثم اشعل سيجارة , وراح ينفث الدخان من منخريه ويتامل ,

.. جدي جبار كان يحب تدخين السجائر , حتى وهو على فراش الموت ينادي اشعلوا لي سيجارة و قبل موته بلحظات كان يهتف .. علتي ليس من دخان السجائر بل من الهم والحزن , آيه .. غابت ايام الرجال , ليحكمنا الجبناء تحت سلطة القانون .. , وبقي الجد في انفعاله ... انا القانون حين نصرت الضعيف على القوي , وانا السلطة اذا انصفت مظلوما على من ظلمه .. , تلك الكلمات لطالما كان يرددها جدي جبار , ثم رسم صورة جده في الذاكرة لاخر ايامه حين اصابه وهن العمر وخارت قواه , ولم يبقى له صديقا الا سيجارته وذكرياته .. هل خسرتها يا فريد ؟

.. انا على ديدن جدي .. قال لنفسه .. ادخن السجائر بنهم , ولا اظنها اسرع في قتل الانسان من يد الاجرام والارهاب الذي اطاح بمدننا واوطاننا , كما لا خلاف على ان الافكار المتعصبة

دمرت البلاد , وقتلت الملايين من الابرياء , وشردت ملايين وغررت بملايين من الشباب , فاين مضار التدخين من بين كل ذلك , ثم سحب نفسا من السيجارة ونفث حتى الف حول راسه سحابة دخانية , اخترقها بوجهه حين واصل تدرجه في ارتقاء الجبل .

.. انت ايها الاسد المغوار , يا سبع الجزيرة الذي هزم الانكليز كذا مرة .. لطالما كانت الجدة سعدة الحسن تهتف بتلك العبارات على رأس جبار الضاحي , لحظة عودته من السوق منهكا , ليجلس على عتبة الدار , ويطلب منها ان تسعفه ( بأستكان شاي) ليسكن الم رأسه , بينما يباشر يلف سيجارة تبغ ويشعلها , تذهب مسرعة نحو المطبخ وتعود , لا تفتر عن الهتاف , انت يا سبع الجزيرة لا تعرف التعب , كان يقابلها بابتسامة ساخرة , ... ما عاد سبعك ذا نفع , لقد ارهقتنا السنين وطعنت الكهولة ظهورنا , ما اظن في العمر بقية لتسعدي .. يا سعدة , كانت بدورها تنفض بفوطتها على صدرها .. الشر بعيد عنك يا رجل , فانت رجل وابو الرجال , يكفي انك وقفت مع اخوتك طيلة فترة شبابك حتى اوصلتهم الى التعليم , ثم انفقت عليهم بعد وفاة والدك , الا يكفي انك ما تزال تصلهم وتسال عنهم , وايام حرب الانكليز , كنت خير رجل دافعت عن شرفنا وارضنا , فانت ورجالك كنتم حماة الدار وقاتلتم ببسالة , حتى طردتم الاراذل عن دارنا وارضنا .. انت يا جبار لابد ان يقيموا لك تمثالا وسط سوق المدينة , اطال الله في عمرك يا سبعي , ثم بعد عام من ذلك الموقف كان جدي قد وافاه الاجل , كنت ايامها ما ازال في السادسة

من عمري , حين شيّع اهل المدينة جثمانه , يهتفون باسمه ( جبار سبع الجزيرة , هزام الانكليز) .

ما ورثت عن بطولات جدك شيئا يا فريد يكرر تلك العبارة في نفسه .

4

الوحيدة , هيفاء , كانت قادرة على ان تصور له الدنيا عكس خرابها , من كلامها الحنون , تهمس في اذنه وتقبله على خده لتطفيء نار الحزن الذي يعتريه , الفوضى ومشاهد القتل التي عمّت البلاد على مدى اكثر من عقد من السنين العجاف , بينما فريد مثل كل الرجال الذين ما عادوا يميزون الخبيث من الطيب , في بلد تكالبت عليه اذرع القتل والنهب والاجرام , كانت الامور في تيه بالنسبة لفريد ومن هو على شاكلته .

.. ايتها الحياة لم تقدمي لنا ما يكفي من فرص السعادة , احترق كل غصن اخضر في ينعه , وقطعت رؤوس البراعم الزاهية قبل انبثاق تيجانها الملونة , فبالامس القريب ضاعت هيفاء , مليكة القلب والمستقبل , واليوم اضعت المدينة ثم الوطن , اضحيت مثل طائر وحيد تاهت عليه علائم الهدي في هجرته .

... فريد يا حياتي لا تهتم لما يحدث , انها مرحلة عصيبة كسابقاتها , ولكن سرعان ما تزول , ذلك ما كانت ترده امامه باستمرار لتسوي له الامور وتخفف عن كاهله غيظ اساه .

ضحكات هيفاء وخفة ظلها , كانت تزيح عن صدره هموما كثيرة , فمن غواية عشقها , اعتاد ان يشحن شرايين قلبه بالامل والحيوية .

مستذكرا ايام لقاءاته معها , لتباشره الحديث عن يومياتها في كلية الهندسة , وعن مطالعتها ودروسها , حيث كانت في المرحلة الاخيرة من تلك السنة , في اخر لقاء , كانت تصف له حال زميلاتها , حيث كّن يتوسلنّ بها ويرتجينها , حتى

يرسم لهن بوريتريهات جميلة , في يوم حفل التخرج المرتقب , كانت سعيدة ومغتاضة في ذات الوقت وهي تحكي له عن ردود افعالها تجاههن وهي ترفض طلباتهن , فمن حقها كما ذكرت ان تحرص عليه منهن , فقد يخطفن عقله وقلبه , ثم عادت تسأله ... هل سترسم لهن في حفل التخرج يا حبيبي الرسام .

ابتسم فريد , مستذكرا ذلك اليوم , والالم يعتصر قلبه , كانت اخر مرة يضم كفيها الصغيرين الناعمين الى صدره وجوابه لسؤالها .. اذا طلبت اميرتي هيفاء ذلك سافعل بالتاكيد , ولكن على شرط ان تكون لوحتها هي الاولى , ومن بينهن ستكون هي الاجمل .

اخر لقاء , ولاول مرة دار الحديث بينهما عن تفاصيل الزواج وموعده , وحديثها الغريب الذي ظن فيما بعد انها كانت تعرف نهايتها او انها كانت تعلم , انه كان اخر لقاء يجمعهما .

... فريد يا حبيبي , ماذا لو حصل لي اي مكروه , أو مت قبل ان نتزوج , هل ستفكر بالزواج من امراة اخرى .

نعم اتزوج ...

ثم تلمس كتفه الايمن , كانها في اللحظة لكمته مزاحا ... هكذا انتم الرجال لا وفاء لكم .

اخر نظرة في عيونها واخر لمسة لكفيها الناعمين الدافئين , كانت تشاركه ذلك الحلم .

5

بين اشواك العليّق ونبات الزهر الجبلي , كان فريد لايزال يضع خطواته بتوكيد , كمن يرسم علامات استفهام خلف شرود ذاكرته المهزومة , او كالذي يضع حركات السكون فوق حروف انتهى للتو من رسمها على خريطة التيه لمنفاه البعيد

, فالخطوات بين باقات الزهور الجبلية المحتشدة على جانبي الطريق , كانت تبعث في صدره البهجة وتنعش انفاسه , تفوح منها انواع من العطور الزكية , ليضطر بين حين واخر , ان يتوقف عند تلك النبتة الجميلة ويتأمل تيجان ازهارها الملونة , فبعضها تبدوا بنفسجية , واخرى ذات الوان زهرية او حمراء داكنة , ولكن الذي يثير اهتمامه اكثر , ان جميع تلك الزهور , كانت ذات جوهر ابيض ناصع يشبه زغب الطير .

كانت شمس الربيع في مثل هذا الوقت من الضحى تلسعه باشعتها , حتى شعر بسخونة الجو وتعرّق جبينه وصدره , ولكن سرعان ما تغير شعوره بالراحة لنسمات الرياح اللطيفة التي تنبثق في المكان ما بين برهة واخرى , فالطريق الى اعلى الجبل , كان ابيضا متكلسا وملتويا بين المروج الخضراء المكتظة على جانبيه , حتى انه ليتباين من بعيد كانه ثعبان كبير يطوق الجبل من الاسفل حتى قمته ذات الشكل الهرمي .

كان فريد قد شعر بالاجهاد في تسلقه , فعهد الى احدى الصخور الكبيرة , الغارقة وسط نباتات النعنع , وزهور الاقحوان , وباقات الشقائق البرية ...الاسترخاء وسط هذا العبق المحتشد يجعل المرء يتنفس الصعداء , ويتناسى همومه قليلا ..

هذا ما قاله في نفسه , بينما لايزال في تأمله لتلك القمّة الهرمية الشكل , التي بات ظلها يدنو منه رويدا , بينما هو غارق في شروده لجمال الطبيعة من حوله , وبين ذاكرة

الحزن التي تخنق صدره , ثم ما فتىء يغشي عقله صدى قول جاره التركي , العم (عصمان) , حين اشار له ذات مرة ناحية الجبل قائلا ... كنّا فتية في مقتبل العمر حيث نرعى الماعز في اعلاه , وكنّا نقضي ساعات طويلة من التاملات , ونحن نتابع (جانكري) المدينة من الاعلى , لقد كانت مساحة المدينة اصغر بكثير مما هي عليه اليوم , فجبل الماعز , او جبل الحرية , هكذا كنا نطلق عليه من تسميات على ايامنا , اما الاجيال الحديثة اليوم فيقتصرون على تسميته بالجبل الكبير , متناسين تاريخ اجدادهم الذين رووه بدماءهم , وسقطوا مدافعين عن المدينة وشرفها ضد الانكليز .

كان العم عصمان , البالغ من العمر سبع وستون عاما , يشعر بالآسى لتضحيات ابآءه من الجنود الاتراك , الذين دافعوا عن ارضيهم آن ذاك , بينما تختلط صور الشهداء في ذاكرة فريد , لقوافل الشهداء الذين قضوا نحبهم ضد الاحتلال الامريكي البغيض , ويلعن في نفسه كل خائن جبان باع شرفه ورجولته ووطنه .

وبحزم وهو يفكر بذلك قال ... بعض اشباه الرجال , ارتضوا ان تنتهك كرامتنا , وتدنس اراضينا , اولئك الذين باعوا الشرف رخيصا لاسيادهم شياطين العصر , ثم ليس ببعيد , خلقوا لنا طوائف , وفئات متناحرة , اغرقت الارض بدماء الابرياء .

ثم تنهد , واستل سيجارة فاشعلها , متابعا شريط الذكريات المؤلمة , واسفا على ما حل بالبلاد , ثم حسرة على ما وقع

عليه وعلى هيفاء المدينة , من ظلم وجور وضياع , فمجرد التفكير بهذه التفاصيل كان يثقل على نفسه كاهل وعذابات غربته .

## 6

جبل الماعز او جبل الحرية , كان ذو شكل هرمي , يقع على الطرف الشمال الغربي , لمدينة (جانكري) وسط هضبة الاناضول , حيث حل فريد بمنفاه بعد خروجه من العراق على

نية اللارجعة , حاله هذا لا يختلف عن حال الذين خسروا اجمل واثمن ما يملكون , ثم غادروا في طريق الهجرة على غير هدى .

القمة المثلثة قال فريد لنفسه ... كأنها هرم الفرعون الكبير , لقد كان علم الهندسة , حلم هيفاء , بمثلثاتها وخطوطها المتوازية , وكل ما يدخل في حساباتها , وزواياها وقياساتها , ويوم طلبت مني ذات مرة , ان ارسم لها وطن كبير , لاتحده اسلاك شائكة , ولا تقيده حواجز كونكريتية , كانت قد اوصتني ايضا , ان اقارب المسافات بين مدنه وقراه , ليبقى كما زعمت , قويا ومتماسكا مثل هرم كبير , هيفاء عشقت الوطن الذي قتلها ؟

ثم صمت لنحيب خفي في صدره , وعاد مستذكرا .

... الطبيعة تبدوا من دونك صامتة , يا سيدة اللواني وحدائقي الخضراء , كنت تحركينها بافكارك , كالنسيم اذا مر على باقات الورود , وكنت على الدوام تقولين , فريد حبيبي , لا تقلد (سيزان) في فنه , هو يرسم الطبيعة ساكنة وغافية على ايقاع نبضه , اما انت فعليك ان تظهر ابداعك , وتضع بصمتك في فنك , حركها يا فريد , ثم اجعل زهورك راقصة ومتمايلة مع الريح , اما تفاحة حواء اذا رسمتها , فاجعلها معلقة باجواء من السعادة , ثم دعها تراقص طيور الحب الملونة , اجعل منها رمزا جديدا للعشق , واعطها ما تستحقه في اغراق اللون والجمال ...

آه يا هيفائي .. لقد كنت مهندسة للجمال والسعادة , ومفتاح ابداعي , لقد جف اللون في صدري , وغرقت روحي , وسط شهقات الحزن , وانا اليوم من دونك , فريدا , وحيدا في منفاي , اضحيت لاحبيبة قلبي هيفاء , ولا لوحاتي الجميلات , ولا مدينة الشاطيء .

ثم انتبه لحركة مفاجئة من فوق القمة الهرمية , حيث اقلع طائر اللقلق الكبير , فتقدم فريد خطوتين , نحو حافة الجبل , راح ينظر بعيدا حيث القمم الشاهقة لسلسلة جبال الاناضول , تبدوا متناثرة مد البصر مغرقة بلون ازرق باهت في عمق السراب .

... الطبيعة هي الام وهي الاجمل ... هذا ما قاله لنفسه , وعاد يتابع طائر اللقلق الذي يسبح في الفضاء , كان يدور حول هرم الجبل , مطلقا جناحاه بحركة ايقاعية رتيبة , يجول بحرية في سماء صافية , مما بعث في نفس فريد خاطرة عن طفولته التي مازال يعشقها , يوم كان مع اقرانه , يطاردون طائر اللقلق , مساء عودته نحو عشه الكبير , يباشرون بالتصفيق واصدار الاصوات الصاخبة , ظنا منهم انهم كانوا قادرين , على ان يفقدوه توازنه في الطيران , قبل ان يهبط نحو عشه الذي كان يعتمر بقايا بوابة قلعة سطيح التاريخية .

لقد كان للطفولة في نفس فريد ومخيلته , افقا ازرقا باهتا , مثل لون سماء ربيعية تبعث الاحساس بالجمال والفرح , وتنفس الصعداء مخاطبا الفضاء ...

هي مدرسة الحياة , وشاطيء دجلة , كان بمثابة ساحة للتدريب والنشأة , يوم كان الربيع فيها مفعما بالحياة والجمال , كنا نجري خلف الطيور الموفدة الى احراج مدينتنا , نمارس السباحة في دجلة النهر , ثم نصطاد السمك , ونزرع الشطيّات مع الاهل والجار , فالاختباء بين احراج (السّحل) , في زحمة اشجار الطرفاء , واشجار الغرب والسدر , كانت هي الهواية , او قل هي الغواية والجمال .

ثم تأمل صامتا , كأنه يتابع فلما سينمائيا يعرض تلك الاحداث امام عينيه , مؤيدا لما يجول في خاطره .

... نعم هي الاجمل , حيث نختمها ببراءة التامل , كنا نستلقي على كثبان الرمل الدافئة , ونراقب زهو النخلات التي تطوق البساتين المترعة بالخيرات , تتباين من خلفها اطراف المدينة التي تعتلي التلين الكبيرين , وكانهما جبلان شاهقان .

ثم تسائل بتعجب ... كيف فاتني كل هذه السنوات من العمر , يا نني اظنهما جبلان شاهقان , وهما بالكاد يكونا مرتفعان هضبيان لا اكثر , لعل التداخل بالشعور هو الذي زرع في كياني ذلك الاحساس , وربما لسبب اخر .. شجاعة وعظمة رجال المدينة , يجعل كل شيء من حولك عظيم ..

ثم رفع صوته كانه يخاطب تلك الايام ... بعلّو همم الرجال , يعلوا شأن المدن واهلها .

ثم تأفف حزنا ... ما اقسى ان يهجر الناس بيوتهم فجأة , خوفا وهلعا , لا يحزمون متاعا , ولا يحملون حقائب سفر ,

بل يهيمون برحيل نحو المجهول , اطفال ونساء وشيوخ وشباب يخشون ان تسعر بهم نار الفتنة , يال هول الكارثة .

متخيلا مشاهد الدمار ..

الكوارث مسحت وجه المدن , ثم قضت على تراثها وتاريخها , فالنار القت رمادها على المروج حتى غدتها حطاما , ثم نعق البوم فوق انقاضها .

الصخرة البازيلتية المتكلسة , التي طال استرخاءه فوقها , كانت مثقبة , ومحاطة بشباك العناكب البرية , سرعان ما فز مبتعدا عنها فجأة , بعد ان شعر باحد العناكب الكبيرة السوداء , يحاول الاقتراب من يده المتكئة على وسط الصخرة , ينفض يده بحركة لا ارادية , وابتعد قليلا عن موضع جلوسه , ثم استشعر حركة ذلك العنكبوت , يتقدم نحوه بحركة سريعة , كانه يحاول مهاجمته , ملوحا بضلعين شائكين في مقدمة جسمه الصغير , ردة فعل فريد المستفزة جعلته يخاطب ذلك العنكبوت ... ليس عداء منكم , فانتم لا تنصبون العداء لبني البشر , فنحن الوحيدون ننصب العداء والضغينة للآخرين , ووحدهم بني البشر من ينتهكون الطبيعة , ويشوهون جمالها , كذلك وحدهم كفيلين بقتل بعضهم البعض .

ثم التفت نحو القمة الهرمية بحركة درامية , كالذي يشق في نفسه عناء سفر بعيد , لا يلوي على شيء , سوى الاستمرار بالرحيل , متابعا سيره المتثاقل , وقاصدا بلوغ اعلى الجبل , كان جسده منحن نحو الامام قليلا , ويضع يديه خلف ظهره , ليخفف الالم الذي بات يشعر به نتيجة السير صعودا , فطوله

الفارع وقوامه المتعضل , كانا يتناسبان مع عمره الاربعيني , الذي اقحمه بوابة الكهولة , بعد ان قضى سنينه في معاناة طويلة , حتى كان اخرها الفرار من البلاد هجرة ونزوحا .

## 7

اول مرة التقى فيها هيفاء , اثارته بثقافتها ووعيها , حتى انه اعجب بها منذ الوهلة الاولى , كان ذلك خلال مشاركته في مهرجان اللوحة المعبرة , وموضوع لوحته كان الطفل اليتيم , تلك اللوحة تحكي عن قصة طفل لا يتجاوز عمره الخمس سنوات , كانت الطائرات الامريكية قد قصفت بيته في الريف وقتلت كل افراد عائلته , كان الوحيد الذي نجى من تلك المجزرة , ومن عادات اهل الريف في العراق ان العائلة بعد

ان تنهي العمل في الحقل بوقت مبكر من الصباح , يجتمعون حول مائدة الفطور , بينما الطفل ذي الخمس سنوات كان لايزال يلعب خارج الدار يجري وسط مروج الحقل , وككل اطفال العالم كان ماجد يعشق انبثاق نور شمس الصباح ليداعب النسيم , ويرافق العصافير في تحليقها , ولكن الكارثة حلت على عائلته في لحظات خاطفة واغدتهم يد الشر الى مجرد اشلاء متناثرة في المكان .

بهذا التعبير كان فريد يقدم شرحا عن لوحته المشاركة في المهرجان على قاعة النشاط الفني , حين اقتربت هيفاء الشابة اليافعة بقوامها الجميل وابتسامتها المشرقة , لتبدي اهتمامهما في النظر الى اللوحات المعروضة , بينما وصل بها المطاف امام لوحة فريد , حيث اثارتها حركة الطفل الذي يحتضن كلبه وسط الحقل بينما في عمق اللوحة اثار لبيت مدمر واشلاء ادمية قد تناثرت في انحاء اللوحة , وطائرة تحلق في كبد السماء هل فسرت لي مكونات اللوحة وما توحي اليه , هذا ما قالته هيفاء لفريد , ليباشر بتقديم تفسيرا عن مكونات وحركة وما تومي له لوحته

ثم شرح لها تلك المقطوعة الماساوية وتفاصيل الحادثة مضيفا ان الناطق الامريكي الذي ظهر على شاشات التلفاز ان ذاك كان قد قدم اعتذارا لذوي الضحايا عن هذا الخطأ , وكما في المجازر التي سبقتها , فانهم يعتذرون عن اجرامهم بعد انتقامهم من الضحايا .

ادركت هيفاء ,ان الذي امامها فنان حقيقي ولوحته مستوحاة من الآم الواقع وانه رسم لوحة الطفل بمشاعر واحاسيس فنان تجاه القضية .

هوايتها وحبها لفن الرسم كان يدفعها لان تتعلم الكثير عن هذا الفن , حيث تعلمت اساسيات التخطيط والتظليل من خلال دورات كانت تقام ايام العطل المدرسية , حيث حواشي كتبها المدرسية مليئة بالزخارف والورود وزهور عباد الشمس وعيون دامعة , ومثلثات وخطوط متوازية , واشد الاوقات التي ينطلق فيه ابداعها في الرسم عندما تكون غارقة في ساعات طويلة من القراءة ومراجعة كتبها المدرسية ايام الامتحانات , فيما بعد كانت قد تعلمت تكوينات المشهد والزوايا وموازين وموكونات اللوحة الفنية , ثم بحثت كثيرا عن سر ابتسامة الموناليزا لدافينشي وعرفت المرحلة الزرقاء لدا بيكاسو , واستمتعت كثيرا بمتابعة لوحات سيزان ورينيه , كانت تشعر بالراحة والمتعة وهي تقرا عن فن الرسم كثقافة متجددة , وفيها فضاء واسع للابداع , وبعد هذا النضج لافكارها ورغبتها في فن الرسم , كانت تحلم بدخول كلية الفنون الجميلة بعد انهاءها امتحان البلكوريا , ولكن والدتها اقنعتها في دخول كلية الهندسة , بحسب وصية والدها المتوفى , كان يامل ان يراها قد حصلت على شهادة طبيبة او مهندسة , في نهاية المطاف كانت هيفاء قد انساقت خلف تنفيذ رغبة والدتها ودخلت كلية الهندسة المدنية , التي احبتها في ما بعد وعشقت دروسها حيث بقيت على وفاق مع قلم الرصاص , تضع الزوايا وترسم المثلثات والدوائر والاشكال

الهندسية , التي يعد فن الرسم فيها بحسب قياسات دقيقة , ولم يختلف عليها الامر كثيرا فبقيت عاشقة لفن الرسم وغارقة وسط جمالياته .

## 8

لجأ فريد الى النوم وهو يشعر براحة نفسية وعقلية , حيث لم يخطر الى نفسه اشياء كثيرة كانت روتينية تسيطر على افكاره وكيانه كل ليلة , حيث استغرق في نومه بسرعة , كما انه لم ينهض من فراشه كما في كل مرة ليأتي باقداح الماء من الثلاجة ويصفها على المنضدة بجانب السرير , وربما يعود الفضل في ذلك , الجولة الحرة التي قام بها في زيارة الحديقة

العامة , وسيره وتنقله داخلها مما ارهق جسده , يتامل تلك المناظر الخلابة والخضرة والوان الزهور وانواعها والاجواء الجميلة التي استمتع بالتجوال وسطها , مما جعله سعيدا مرتاحا ومرهقا في ذات الوقت , نام ليلته كما ينام الطفل .

راى كانه يسير بين احراج (السحل )على شاطيء نهر دجلة , وانه كان يتالم لما يصيبه من الحصى تحت قدميه العاريتين , يبحث عن لوحته التي فقدها بين الاحراج , امامه طريق ملتو بين اشجار كثيفة , بالكاد يميز الاشياء اذ بدى الجو ضبابيا و مظلما , وكلما اقترب من احدى الاشجار الكبيرة في طريق بحثه , هبت مجموعة من الطيور منطلقة نحو السماء , بعضها تهاوت ميتة او ممزقة متانثرة الاجنحة , وبعضها الاخر كان يذهب بعيدا في عمق السماء , ثم وهو يتابع طريقه سمع صوت دوي شديد ارعبه , وبقي الصوت يرتفع ويتكرر صخبا كانه صوت رعد متواصل , وتناهى الى سمعه صوت صراخ لنسوة واطفال تبكي , واصوات رجال تهتف بكلام لم يفهم منه شيئا , اصابه الرعب وراح يجري بسرعة وسط تلك الغابة الموحشة , هدفه العثور على لوحته الضائعة , ثم نظر نحوة كوة سوداء مظلمة بين اشجار كثيفة , كان ثمة ضوء ابيض ضئيل اتجه نحوه بحذر وتباطؤ , اذ بات يرى ظهر امرأة ترتدي ملابس بيضاء , وشعرها طويل سارح , ينساب على كتفها وظهرها , بينما تتامل بين يديها لوحته التي يبحث عنها , اقتراب فريد ليدخل الكوة محنيا ظهره ليخطف لوحته من بين يديها , ومع تلك اللحظة الحرجة في اقترابه منها كانت المراة قد التفتت نحوه وصرخت بوجهه , خذها خذها ,

كانت ردة فعله لما راه من مفاجاة جعله يصرخ .. هيفاء , انت هي ..

فز من نومه فجاة يلهث وجسده كان يتصبب عرقا ويشعر بعطش شديد , فبقي يلهث بانفاسه في العتمة وقد اجهش بالبكاء متضرعا الى الله ان يراف بحاله ويخفف عليه الآم حزنه وغربته , ثم تناهى الى سمعه صوت اذان الفجر من جامع احمد يوسف باشا المجاور , فتشهد واستغفر ثم نهض من فراشه ينوي صلاته في الجامع .

## 9

صوت جهاز المراقبة السريرية , كان يصدر صوت صفير متقطع كل ثلاثين ثانية , وشاشة راسم الاشارة تظهر خطوطا بيانية بتضاريس ارتفاع وانخفاض , والى يمين الشاشة ثمة مصباحين صغيرين , احدهما باللون الاحمر والثاني كان يلمض بضوء اخضر لكل ثلاثين ثانية , تزامنا مع انتهاء صوت الصفيرالذي يصدره الجهاز برتابة .

الاسلاك المتدلية من الجهاز موزعة على الاطراف العليا لجسد المريضة الراقدة على السرير , ومن الاعلى كيس المغذي يقطر بتباطؤ في الخرطوم الشفاف الذي تدلى , وثبت طرفه الاخر بكانولة على ذراع المريضة الايمن , والممتد خارج اطار السرير .

الجسد مسجى بغطاء اخضر اللون , لا يظهر من وجهها سوى العينين المغمضتين , حيث كمام التنفس الاصطناعي يغطي الفم والانف وجزء من حنكها , بينما غلف راسها بقطع الشاش الطبي , بدت كأنها تعرضت لضربة قاسية في الراس , او انها سقطت من مكان مرتفع او نتيجة لصدمة عنيفة على الجمجمة .

دخل دكتور خالد , تتبعه الممرضة سرى , واول شيء فعله كان ينظر الى جهاز مراقبة المريض والمثبت اعلى السرير , باشر يدون بعض الحروف الطبية , ثم نظر الى كانولة التقطير فاشار الى سرى ... الان قللي من تقطير المادة الى مليمات , دس سماعة فحص القلب من تحت الوشاح الاخضر ليسمع دقات القلب ويثبت التوقيت على الورق , ثم فتح جفن عين المريضة يدقق النظر في بياضها , وعاد يسجل الحالة في ملف المريض , ثم اوعز الى سرى الممرضة ان تهيء الملف فور وصول الدكتور جميل .

بغداد عاصمة الرشيد , لم يبق فيها ذي رشد , وها نحن نموج في فوضى لا وصف لها ...

قال الرجل الضخم الذي يقود السيارة المارسيديس المدرعة ضد الرصاص , متحدثا في هاتفه الجوال باستياء ... منذ ساعة وانا عالق على هذا الجسر اللعين , ولا اعلم متى سوف اصل الى المستشفى ,هناك مرضى حياتهم في خطر , هذا هو واقع الحال ... حسنا عزيزتي لا تقلقي ساكون بخير وسوف اطمأنك لحظة وصولي .

اغلق هاتفه الجوال ورماه على المقعد المجاور وعلق ... كل الناس باتوا مهددين بالخطر في هذا البلد , ولا نعلم ان كانت ابار النفط قد نبعت بالارهاب ,, ثم ضحك ساخرا .

رن الهاتف مرة اخرى , حدق في الصورة التي ظهرت على الشاشة , ثم مسح عليها بابهامهم وتكلم مباشرة ... نعم سرى ماذا هناك ..

كان صوت الممرضة مرتفعا قليلا وهي تصف له حالة المريضة ( م ت) الراقدة تحت العناية المركزة منذ ثلاث اشهر , كان الدكتور جميل يركز على صوت المكالمة بدقة , حسنا هذا جيد , يبدو انها في طور الافاقة , اخبري د.خالد ان يجهز تقريرا شاملا عن حالتها , وانتي جهزي لي كل الفحوصات القديمة وصور الاشعة السينية وصور لجهاز( الرنين الكهرومغناطيسي ) وتخطيطا حديثا للدماغ ضعيها جميعا على مكتبي لنرى حالتها النهائية .

عاد صوت سرى يتحدث عبر الجوال , والدكتور جميل يقود سيارته حيث بدات المركبات تسير لتعبر الجسر ... حسنا

عزيزتي انا الان احاول اجتياز الجسر بعد دقائق ساكون عندك افعلي ما اخبرتك به , الى اللقاء ..

اغلق الجوال وتابع قيادة سيارته بتباطؤ خلف القطار الطويل للمركبات المزدحمة .

## 10

وصل الدكتور جميل اختصاصي الجملة العصبية ورئيس قسم الجراحين في مدينة الطب .

توجه مباشرة نحو الردهة التي ترقد فيها المريضة المجهولة الهوية , كل الذي يعرفه عنها انها نقلت الى مستشفى الجراحة في مدينة الطب مع طفل جريح كان قد توفي بعد ساعة من

وصوله الى المستشفى , بسبب الحروق التي سببت لجسده بالتسمم العام , وامراة ستينية اصيبت بتهشم في الجزء الخلفي من الجمجمة ثم توفيت بعد يومين لسوء حالتها , كان الدكتور جميل وزملاءه قد بذلوا قصار جهدهم في انقاذ اولئك الجرحى .

بقيت المريضة المجهولة الهوية , التي اطلق عليها الدكتور جميل رمز (م ت) , كانت اصابتها خطيرة في الراس مما تسبب بكسور خفيفة في الجمجمة , فوق الاذن اليسرى , كما كانت تعاني من كسر في يدها اليسرى , ورجليها التي استخرج منها عدد كبير من شظايا الانفجار , وهي في حالة فقدان تام للوعي منذ ثلاث اشهر , لكن الدكتور جميل بعد ان انهى العملية الرابعة لعظم الجمجمة , اخبر فريقه من الاطباء , انها ستكون بحالة جيدة بمشيئة الله , وان العمليات الاربع التي اجراها كانت ناجحة وقد لمس تقدما وتحسن سريع لصحة ( م ت) , وها هي اليوم تتماثل للشفاء .

اخذ الدكتور جميل ملف المريضة وراح يتصفح ما دونه الدكتور خالد عن حالتها , قال .. هذا جيد ثم ناول الملف بيد الممرضة سرى الى جانبه , قال الدكتور خالد ... هل تظن ان حاسة النطق ستكون سليمة .

... خلايا الدماغ الخاصة بالنطق سليمة وانا متاكد ان نطقها سيكون اعتياديا ... قال ذلك بينما كان يدقق النظر في جهاز مراقبة المريض , ثم التفت نحو الدكتور خالد معقبا ,

... ذلك لانها وكما ذكرت لنا سرى سمعتها تنطق بكلمة امي وهي في غيبوبتها , وكذلك كانت تتلفظ باسم شخص مثل , سعيد او حميد , او ما شابه ذلك , المهم ان لفظ اللسان سليما تماما , وربما فقط في البداية سيكون كلامها ثقيل على اللسان , الى ان يستعيد الدماغ نشاطه بعد ايام او اسابيع على الاكثر .

اقترب من المريضة وتحسس حرارة جبهتها وفتح عينها ونظر فيها ثم تحدث قرب اذنها , مرحبا , كيف تشعرين .

حركت راسها ببطيء تجاه مصدر الصوت , وفتحت عينيها الى النصف ثم اغمضتها مرة اخرى .

انسحب عنها مبتسما لتبدو على وجهه سمة التفاؤل , هذا جيد , ممتاز ... اسمعي سرى , اليوم تراقبينها بعناية , فاذا ما عاودتها حالة الافاقة وتحركت او نطقت فازيلي عنها كمام الاوكسيجين وكلميها , حتى تفتح عينيها وتركز , كرري ذلك معها , فانني اتوقع انها سوف تستيقظ تماما في اليوم او الغدا ,

.. نعم دكتور , سوف افعل ذلك , بينما تضع ملف المريضة على الطاولة المعلقة في نهاية السرير , انسحب الدكتور جميل يتبعه الدكتور خالد الى غرفة الاطباء ليراجعوا اوراق وصور الاشعة والرنين المغناطيسي وتخطيطات الدماغ لمريضتهم ( م ت) ,الفتاة الشابة المجهولة الهوية , لا يعلمون عنها شيء فقط انها نقلت اليهم من مستشفى طواريء كركوك وانها

احدى ضحايا قصف طيران الجيش الحكومي لمدرسة اعدادية الصناعة شرق تكريت .

لقد كتب الله ان تكون من بين القلائل الذين نجوا من فاجعة قصف طيران الجيش الحكومي لمدرسة اعدادية الصناعة التي لجا اليها العوائل فرارا من الارهابيين الذين غزوا تلك المدن على حين غفلة او تدبير ؟ .

## 11

قال دكتور جميل وهو ينظر في صورة الاشعة امام المصباح على مكتبه , العوائل فرت , مع ذويها واطفالها ظنا منهم ان بيت العلم سيكون امينا , وكما غيرهم يلجأون الى المساجد , ليحتموا في بيوت الله من شر الاقتتال , ولكن يا عزيزي دكتور خالد دعني اقول لك شيئا ,فان الحروب الحديثة ما عادت تميز

الاحياء السكنية او المدارس او دور عبادة او حتى المستشفيات , فكل شيء على الارض في مفهوم الجيوش الحديثة في مرمى النيران , اما نظرية الحروب النظيفة فقد ولى وانتهى , فحروب هذا الزمان عشوائية والقصف بهذه الطريقة , عبارة عن ابادات جماعية قد تكون منظمة ومدروسة مسبقا , مادام هناك وسائل اعلام تقدم الاعذار وتتلاعب بقناعات واحاسيس المشاهدين .

ايه دكتور خالد .. كانك تقول السياسيين الجدد في هذا العالم لايهمهم شيء سوى التمسك بالسلطة .

هز راسه الدكتور جميل نافيا الفكرة , بينما يرفع صورة الاشعة امامه , ملفتا وجهه عن قرب بوجه الدكتور خالد ..

لا ليس التمسك بالسلطة فالسلطة مضمونة , ما دامت جهات خارجية هي من اجلست السياسي على مقعده فمن المؤكد انه سيكون مسنودا بقوة , ولكن قل لي ان السرقة والفساد الاقتصادي والنفطي الذي يدر عليهم بالمليارات , من دون اي رقيب , وما دامت حصص القوى المساندة مضمونة فالبقية الباقية , مقسمة بين مصاصي الدماء من السياسيين والمدعومين من الخارج , وما يجري لنا منذ يوم الاحتلال عام 2003 الى يومنا هذا , اي بعد اثنى عشر عاما ونحن نعيش في اجواء الفوضى , والمليشيات والقتل وتدمير المدن والانسان , انا وانت وكل الاطباء شاهدين على التصفيات العرقية والمذهبية التي اشتعلت في معظم مدن العراق , وها نحن نشهد بان المستشفيات لا تخلوا من عشرات جثث

الابرياء وبصورة يومية , فالذين قضوا نحبهم لا لشيء , الا لانهم ينتمون الى فئة او طائفة مغايرة للطائفة التي تتمتع بالقوة والدعم والمساندة , وفي الجهة المقابلة نشات فئات اخرى , ويبقى المواطنين والعوائل الابرياء في خضم المحرقة .

حسنا دكتور تحليلاتك للواقع صائبة , ولكن الى متى وكيف سينتهي هذا الدمار باعتقادك .

نهض الدكتور جميل وترك كرسيه الذي استدار بسلاسة مع حركة نهوضه , ثم خلع البالطو الطبي عن كتفه وعلقه على الشماعة التي خلفه , ملفتا وجهه صوب الدكتور خالد الذي هو بدوره فز من مكانه ايضا هاما بالمغادرة , قال الدكتور جميل كلمته الاخيرة قبل ان يغادر ,

اقول لك ينتهي متى ما جفت اخر قطرة بترول في هذه الارض , فالحرب حرب بترول يا عزيزي خالد , وهذا مؤسف حقا .

ثم اغلق باب الغرفة بعد خروجهما .

## 12

كانت الشقة التي استاجرها فريد , صغيرة تقع في الطابق الثاني من المبنى , تتالف من غرفة نوم واحدة وصالون ومطبخ , ولها شرفة واحدة تطل على جبل القلعة الذي تنساب تحته بعض المجمعات السكنية التي تتخللها بساتين وحدائق عامة خضراء .

الشقة كانت مستاجرة لمجموعة من الطلبة الوافدين من محافظات تركية اخرى , حيث عرف فريد فيما بعد ان مدينة

جانكري اشتهرت بكثر الجامعات والكليات المدنية , بالرغم من مساحتها الصغير .

المطبخ مجهز بثلاجة صغيرة وموقد لطهي الطعام , ومنضدة بلاستيكية يتقابل حولها مقعدان مصنوعان من اللدائن , وفي الرفوف المعلقة فوق الكونتير , ثمة بضع اطباق زجاجية متنوعة وبعض كؤوس , وجزوة لصنع القهوة الى جانبها فناجين ... لأعد القهوة قبل ان ابدأ باي اعمال تنظيف ... قال في نفسه وهو يضع القهوة على النار .

دلف نحو غرفة النوم , وقف عند بابها متاملا السريرين المتقابلين على طرفي الغرفة , يتوسطهما دولاب ملابس صغير مصنوع من الخشب , ثم تحول نظره نحو السجادة التي تكسو ارضيتها , فخطر بعقله ان يبدأ بتنظيفها قبل ان يغير من ديكور الغرفة , اما النافذة فكانت واسعة وعليها ستائر بيضاء ناصعة كحال ستائر اغلب منازل وشقق المدينة , حيث يعلقون الستائر البيضاء على جميع النوافذ , وحتى الشرفات يغلفونها من الداخل بستائر بيضاء بعضها نقشت عليها زهور كبيرة وباللوان جميلة .

في الصالون حيث جلس يحتسي فنجان قهوته , كان جهاز التلفاز امامه الى جانب الباب المطل الى الشرفة الصغيرة , وفي وسط الصالون كانت منضدة طعام , حولها ثلاث كراسي مصنوعة من الخشب وعليها مزهرية فيها ورود اصطناعية , وارضية الصالون كانت مفروشة بسجاد احمر ومنقوش بورود كبيرة ملونة .

فتح سيبته , وسحب الطاولة قرب النافذة , راح يرتب عدت الرسم , ثم اخرج من حقيبته اقلام وعلب اصباغ وفرش , وبعض اللوحات الغير من مكتملة , ثم اخرج لوحة مغلفة بورق هدايا ومعقودة بخيط احمر , وضعها مستقلة على الطاولة من دون ان يحاول فتحها , ولكنهه دقق النظر اليها بحنو كانها جزء من كبده .

باشر يرتب وينظم ديكور واثاث شقته الجديدة , التي انتقل اليها تاركا النوافذ مشرعة امام ضوء الشمس والهواء المنعش , حيث بات يشعر بنوع من الراحة والسعادة ,

تنفس الصعداء محدثا نفسه , ... اليوم اباشر الرسم من جديد , وكانه بذلك بدأ يستعيد استقراره النفسي بعد اشهر من الكآبة والحزن والالم .

## 13

كانت الممرضة سرى تعمل بحرص تام , بحيث لا تغيب طويلا عن مريضتها ( م ت) , فبعد ان تزور مرضاها الاخرين , وتقضي بعض اشغالها كانت تعود لتجلس الى جانبها وتراقب حالتها , وفي بعض الاوقات كانت تتاملها بلطف وتشفق عليها وعلى ما اصابها ... هذه المرأة التي تعرضت لنيران القصف مع ذويها وهي لا تزال في زهرة شبابها , قد يكون اهلها قد قتلوا , او انهم في حالة سيئة مثل حالتها الان , هي قد تتعافى وتشفى , ولكنها قد تعاني من عوق يجعلها تقضي بقية حياتها في معاناة والم , والشعور النفسي الذي سيصيبها , والناس

تنظر الى عوقها , لو حدث ذلك لا سمح الله , لكانت تتمنى الموت كل لحظة , وربما فكرت بالانتحار , ولو ان احد اطرافها السفلى لم يستجيب لايعازات الدماغ , كما توقع الدكتور جميل ذلك , فانها ستقضي بقية حياتها مقعدة , او مشلولة , يا الاهي كيف لمثل هذه الشابة الجميلة ان تقضي حياتها لو ان احد هذه الاحتمالات وقع عليها او اصابها .

كانت تقول ذلك وهي تتأمل الجهاز الالكتروني , الذي ما زال يصئي مطلقا صفيره المزعج , والشاشة التي ترسم خطوطا بيانية باستمرار , كانت سرى تقيّم حالة مريضتها من خلال النظر في النتائج الفورية التي يعرضها ذلك الجهاز .

رن صوت هاتفها الجوال مثل صوت ذبابة , حيث اصدر ازيزا في جيبها , ركزت نظرها في شاشة الجوال , كانت صورة الدكتور جميل مطلة بلقطة قريبة , مسحت على وجه الشاشة ورفعت الجوال الى اذنها .

نعم مرحبا دكتور , انا معها في الغرفة , كل شيء طبيعي ومستقر , ماذا ؟ نعم اعرفه المريض الذي في الغرفة 356 حسنا .. حسنا سافعل , ننقله الى جهاز الرنين ونتائج التحليلات , ستجدها جاهزة على مكتبك , امرك .. الى اللقاء

اعادت جهاز الجوال في جيبها وخرجت على عجل من الغرفة .

بقي الجهاز الالكتروني يصدر صوته الرتيب , مخترقا سكون الغرفة , والمريضة القابعة منذ ثلاثة اشهر على هذا السرير

, بدات تحرك راسها يمنا وشمالا , كمن يستشعر الالم وهو في عالم الغيبوبة , اللاوعي كان يقظا داخلها , ولكنها غائبة عنه في عالم اخر .

جسدها بدى نحيلا جدا , حتى بدت مثل هيكل عظمي مكسوا بجلد ابيض , يتباين تحته خطوط شراييـنها الخضراء القاتمة , وكيس المغذي المعلق في الاعلى كان يقطر دموعه بتباطؤ , تنزلق الدمعة المتقطرة خلال الخرطوم لتستقر من خلال الكانولة في شريانها , ذلك كان مصدر غذائها الوحيد الذي يدير شؤون الطاقة في هذا الجسد المعطل .

تحرك ذراعها قليلا , وكأن اللاوعي بدأ يستشعر الالم في مكان غرس ابرة الكانولة , وانفاسها بدات بتسارع مع حركة الذراع الذي ارتفع عن موضعه وهبط بزاوية متقاطعة على بطنها , اما صدرها كان يرتفع وينخفض مع سرعة التنفس المنفعل بالتدريج , وجهاز المراقبة الالكتروني , كان قد ابدا انفعاله مع حال مريضته , فازداد صوت صفيره وصار متقاربا في تزامنه , الضوء الاخضر صار يومض مرتين خلال ثلاثين ثانية , وجهاز راسم الاشارة صار يرسم تلالا ذات مستوى اعلى من تلك المستقرة التي كان يرسمها على مهل .

الجسد المسجى , بدا يستشعر الالم الذي في الذراع والراس , وتسارع الانفاس وسيلة لشكوى الاحاسيس , التي تنقلها الاسلاك المثبتة بعناية , نحو الجهاز الذي يعلن شكاية الجسد لعل احدهم ينتبه لنذيره .

هواء بارد ومنعش يخترق الفم والانف نحو الرئتين , لكن الدماغ ما زال لايعلم اي غرابة تحيط به , والعالم المجهول الذي نقل ليسجى فيه , غامت الحقيقة عن الذاكرة المؤقتة , تلك التي تستشعر الالام , صارت الذاكرة في عالم اخضر , ارض ربيعية واسعة بامتداد النظر , ترى نفسها كانها تطارد فراشات ملونة , تلاحقها باتجاه بحيرة جميلة متاخمة للبساط الاخضر , وهي تجري خلفها وتضحك كما لو انها عادت طفلة صغيرة , تركض بحرية وجسدها خفيفا مثل ريشة تداعبها الرياح , ثم فجاة رات نفسها تسقط وسط البحيرة , وراح الجسد يغرق في الماء , فارادت ان تصرخ ولكن فمها كان مقيدا , ثم حاولت العوم وسط الماء , لكن اطرافها لا تستجيب , حتى استقر الجسد في قاع البحيرة , وفجاة امتدت ذراع واتنتشلها لتعيد الجسد نحو البساط الاخضر .

## 14

الحديقة الواسعة التي تتشابك فيها اشجار الكستناء المعمرة , ظن انها اقدم حديقة وسط جانكري , وخلال تجواله في الاسواق ذات الطرقات المتشعبة , كلما خرج من زقاق ليدخل الاخر لاحت الحديقة الجميلة امامه , او الى جانب ذلك الطريق , وكانها صممت لتؤدي جميعا الى ذلك الفناء الجميل

ثم قرر اخيرا ان يدخل اليها وياخذ قسطا من الراحة في المقهى الذي يعتمر طرفا من الحديقة الواسعة , كانت الساعة لاتزال تشير نحو العاشرة صباحا , والمقهى شبه خال من الزبائن , وفي الزاوية التي اقيمت فيها نافورة مستطيلة الشكل

, احتل فريد احدى الطاولات وجلس ينتظر قدوم النادل ليطلب الشاي , الا انه وبعد مرور اكثر من خمس دقائق لم يساله احد , فالتفت نحو جهة المطبخ فشاهد النادل غارقا في حوار مع نادل اخر , كان يجلس خلف طاولة الكاشيرة , في بداية الامر كان يظن انهم يحسبون مدخولات المقهى , ولكنه انتبه بان المقهى يكاد يكون خال من الزبائن , ففي الزاوية البعيدة في ظل شجرة كان رجل وامراة يتسامران , وفي وسط المقهى كان رجل خمسيني يتصفح جريدة , وهو الذي دخل للتو بانتظار ان ينتبه اليه النادل , لكن لا احد يابه لوجوده , حتى بعد ان رفع يده ليثير الانتباه , اخيرا قرر ان يذهب بنفسه ويطلب الشاي , فاجتاز الطاولات التي بينه وبين المطبخ , ولما توقف قرب الكاشيرة , كان النادل الاسمر يتحدث الى الاخر الجالس خلف الكاشيرة , وكانهما في نقاش , تحول فيما بعد الى جدال , لم يشأ مقاطعة حديثهما ولكنه ايضا كان لا يفهم كثيرا من تفاصيل النقاش , لانه لايزال في طور تعلم اللغة التركية , ولكن الذي استطاع ان يفهمه من اطراف الحوار ان النادل الاسمر كمن يدافع عن نفسه ويقدم اعذارا عنما حدث يوم امس .

فجاة التفت اليه الشاب الاسمر , ليوجه الحديث نحوه ويشاركه القضية ... يا اخي كيف يمكنك ان تفهم هذا الرجل ؟ ابتسم فريد وأومأ براسه كانه لا يعلم شيئا , وفاجاه النادل مرة اخرى يا اخي هل انت عراقي .. فريد بذهول .. نعم انا عراقي , قال النادل مرة اخرى , تريد شايا , استغرب فريد مما هو فيه من موقف وي كأن طلب الشاي يسبب متاعب في هذا المقهى ,

وبامتعاض رد على النادل وهو ينسحب نحو طاولته , نعم شاي من فضلك , شعر فريد بخيبة امل كبيرة تجاه هذا المقهى الذي يستشرف على هذه الحديقة الجميلة , وعندما جلس الى مقعده نفحته نسمات هواء باردة تحمل معها رذاذا ناعما من مياه النافورة المجاورة , وسمع وشوشة اوراق الكستناء التي بدأت تهتز بفعل الريح , ثم كردة فعل منه عن الموقف المحرج الذي وضعه فيه النادل قال ... اذا كان المرء عديم الذوق فاذهب به نحو القمر او الى المريخ وعد به الى الارض ستجده على حاله الاول .

اقبل النادل الاسمر حاملا صينية يتوسطها كوبا من الشاي , وبعض مكعبات سكر , وضعها على الطاولة امام فريد , فلما شكره , رد النادل قبل ان ينسحب

.. ارجوك اعذرني اخي , التفت فريد نحوه

... عن ماذا تقصد , قال النادل بآسف

... حين كنت اتحدث الى صاحب المقهى , حيث اشرح له وافهمه بانني يوم امس كنت مريضا , ولم اتمكن من القدوم الى العمل , ثم انفعل فجاة وكانه يحاول ان يدعم اقواله بدليل ... والله انني لا اكذب , انظر الى مكان كانولة الابرة ,

ثم مد يده التي فيها صينية الشاي امام وجه فريد ليريه مكان الابرة , بينما فريد متفاجأ لحركة اليد حيث ارجع راسه الى الخلف قليلا , وهو يدقق النظر في موضع الابرة الذي اشار اليه النادل , فايده على صحة اقواله ,

... اه نعم هذا دليل على انك كنت يوم امس مريضا وهذه اثار الابرة على ذراعك , ثم حول نظره نحو وجه النادل ليقدم له نصيحة مادامه قد اشركه في قضيته ,

... انت ايضا افهمه بلطف لانك بحاجة ان تداري رزقك يا اخي ,

فجاة هتف النادل العراقي بوجهه قبل ان ينسحب نحو المطبخ ,

... اي رزق هذا , اللعنة على هذه المهنة واللعنة على من جعلنا نرتمي للعمل تحت رحمة هؤلاء .

شعر فريد بالاسى لهذا الموقف وحال هذا النادل المسكين , وخشي ان تنقلب الامور الى صراع حضاري , لو حاول ان يقنع النادل بانه لابد ان يرضخ لواقع الحال الذي يشمل جميع المهاجرين والنازحين عن بلادهم ومجتمعاتهم , ثم وهو يلتفت عن النادل الذي دلف نحو جهة المطبخ سمعه صوت هتافه من هناك , ... اللعنة على البلاد والساسة وحتى الشعب باكمله ؟.

ابتسم فريد لسخرية ما يمر به المهاجرون , والمعاناة التي يعيشون فيها , هم يحتملون اعباءا كثيرة ولا احد يعلم الى متى , قال ... الى ان يشاء الله , او ان تتعاطف لجان الامم المتحدة في اعادة توطينهم في بلدان اخرى .

اخرج علبة سجائره , واشعل واحدة ثم راح يدخن , متاملا المكان من حوله , وسط النافورة كان تمثالا لفيل صغير يرش

الماء نحو البجعة التي وضعت امامه على مسافة مترين تقريبا , والطرف الاخر للنافورة ثمة فسحة خضراء طوقت بورود حمراء وصفراء , اما مدخل الحديقة في الطرف البعيد , تحت اشجار الكستناء الكبيرة وزعت مساطب خشبية هلالية الشكل , ترسوا على قواعد اسمنتية نفذت بافكار فنية وهندسية جميلة , وجميعها كانت مرتبطة برواق مفروش بالحجر الملون , يدور حول ميدان الحديقة بشكل دائري , ففي وسط الفناء الواسع المفروش بالحجر الملون , كانت هناك شجرة كستناء كبيرة , حتى انك لتظن انها اكبر اشجار هذه الحديقة سنا واقدمها تاريخا , طوقت بمنصة كونكريتية على قطر يقدر بمترين على شكل دائري , ثبتت حولها مساطب خشبية , يجلس عليها المارة او المتنزهين في هذه الاجواء الطيبة , وفي الطرف الذي يعتمر الفناء عند مدخل الحديقة , اقيمت مصاطب هلالية الشكل ايضا تواجهها بارتيشنات زجاجية وضعت بداخلها نسخ لاقدم الصحف التي صدرت قبل ثلاثين عاما في هذه المدينة , كما احتوت على صور اشهر الشخصيات السياسية او العسكرية او الثقافية الذين قدموا دورا واضحا في تاريخ وثقافة المدينة .

ثم اثيرت في نفسه ملاحظة , لماذا هم هكذا على حال من الترتيب والرقي والنظافة , وعلى درجة من الوعي والتنظيم والثقافة , ونحن , لا , لا شيء ولسنا على شيء , نفث اخر انفاس سجيارته فقرر ان يخرج من المكان قبل ان يرهق افكاره في المقارنة الى مدى ابعد , مبتسما في داخله لماساة

الاف النازحين والمهاجرين من ابناء جلدته , يعانون الامرين في الغربة والتيه بعيدا عن ارض الوطن .

## 15

الجهاز الالكتروني كان مستمرا في اصدار صوت صفيره بتزامن متقارب اكثر من ذي قبل , والضوء الاخضر يومض بسرعة , بينما جهاز رسم الاشارة تغير شكل الخطوط عن رتابته السابقة , وفجاة نطقت المريضة تحت كم الاوكسجين , فريد ؟ ... امي , ثم تحرك جفنيها نحو الانفراج , انكشف عنهما فصان من الماس الابيض وسط كل واحد منهما فص من العقيق الاسود فيه لمحة ضوء براق , يوميء بلحظ ساحر , تلك العيون الجميلة التي طالما كانتا حبيبتين لشاعر رسام , يعشقهما ويتغزل بهما , يجهل انتعاشهما في هذه اللحظة التي تحركت فيها بارهاق والم , العينان تحدقان في فضاء الغرفة ثم تنغلقان , تكرر ذلك مع حركة الراس الذي باتت تستشعر

بثقله وحرقة الم في محيطه , كان صوت صفير الجهاز يخترق مسامعها عاجزة عن تحديد مصدره , الا انه كان يتحول الى ما يشبه موجات رنين صاخبة , يبقى صداه يتردد في قبة راسها , شعرت منه بالضجر , وشيئا ضبابيا ثقيلا يطغى على تلك الذاكرة الضئيلة , بدأت تستشعر وتقرأ الواقع المغيب عن الدماغ , الضباب طغى على تلك النافذة وحل محله صورة الام الجالسة قبالتها , كانت تبدو سعيدة ومبتسمة وهي تلوح لها من بعيد , بينما حركة شفتيها تحت كم الاوكسجين كان ينطق ... امي , امي ... ثم يصمت مع غياب الصورة عن اللاوعي الذي لا يزال يتحكم بهذا الجسد المسجى في غيبوبة عن الواقع .

دخلت الممرضة سرى الى الغرفة وشعرت بان شيئا ما قد تغير , فانتبهت الى صوت صفير الجهاز كانه ينذر بحدوث تطورات لحالة المريضة , قد يكون نذر تدهور في حالتها , ولكنها عندما تابعت قراءات شاشة الجهاز الالكتروني , ابتسمت وشعرت بفرح شديد ان النتائج مبشرة بخير , حيث ان الجهاز بات يسجل انفعالات الجسد , ونشاط في دقات القلب , مع ارتفاع ضغط الدم نحو مستوياته الطبيعية , ذلك دليل على حركة اطراف الجسد الخاملة منذ اشهر , حتى ان سرعة التنفس وحركة اليد او دوران الراس كان الجهاز يسجلها كحالة للانفعال , ليصدر صوته المتقارب وينذر الطبيب او المعالج بان هناك تغيرات طرأت على المريض .

تصرفت سرى الممرضة بسرعة , فنزعت كمامة الاوكسجين عن فم المريضة , لتنفرج تحته شفتان ورديتان جميلتان

يعتمرهما انف دقيق , كانت الشفتان تنفرجان اكثر في حالتي الشهيق والزفير وكانها تستشعر لذة الهواء الطبيعي الذي غاب عن رئتيها منذ زمن طويل .

بدأت سرى تهتف قرب اذن مريضتها ...عزيزتي .. الحمد لله على سلامتك .. هل تسمعينني ..

تحركت العينان , وانفتحت الجفنان لتنظر للحظة , ثم اطبقتا من جديد كانها تخشى ان تعي هذا الحاضر المجهول , تكرر صوت الممرضة الذي يخترق سمعها , ليصل الى مترجمات العقل في عالم وعيها المرهق , .. انت الان بخير ... هل تدركين ما اقوله لك .. فقط افتحي عينيك وحدقي في وجهي ... تحرك رأس المريضة باتجاه الصوت وتفتحت العينان المرهقتان , راحت تركز النظر , لكن الصورة كانت تبدو ضبابية وغير واضحة , كما شعرت بان وجه امراة غريبة كان متدلي فوقها وهو مصدر الكلام الذي بدات تفهمه .

اخرجت سرى هاتفها الجوال , واظهرت صورة دكتور جميل ثم نقرت عليها وبسرعة رفعته الى اذنها , ثم تحركت صوب النافذة مبتعدة عن صوت الصفير الصاخب الذي يصدره جهاز المراقبة .

... مرحبا دكتور , انها البشرى ازفها اليك , نعم انها هي مريضتنا , لقد عاد وعيها , نعم تستجيب لكلامي , فتحت عينيها وحدقت في وجهي , مبروك لك سيدي , حسنا بانتظار وصولك , نعم , لا لن اتركها حسنا الى اللقاء ...

اعادت هاتفها الجوال في جيبها , وسحبت الكرسي لتجلس قريبا من وجه مريضتها, التي حاولت ان تسحب يدها التي انغرست الكانولة في وسطها , وتضعها بشكل متقاطع فوق بطنها , ساعدتها الممرضة في اداء الحركة , ثم سحبت خرطوم نقل المغذي قليلا لتعطيها الحرية في تحريكها , وبقيت تتابعها بفرح وتفاؤل .

## 16

اهتمام دكتور جميل بهذه المريضة بالذات بات امرا واضحا ومهما , حتى انه صب عصارة خبراته الطبية لتحدي محاذير اجراء العمليات الجراحية الدقيقة في الدماغ والمخ , لان حالة المصابة كانت خطيرة جدا الى درجة , ان زملاءه من الجراحين في غرفة العمليات قالوا له انها اقرب للموت او الشلل اتام , لكن بقوة ارادته واصراره على بذل جهده وطاقته العلمية والانسانية , وايمانه المطلق بان الله قادر على ان يكتب لها عمرا جديدا , لتستعيد كامل جسدها وحركتها دون خوف او تردد .

بحسب التقارير الاولية ان الشظية التي اخترقت جمجمتها , كانت قد استقرت ملامسة للدماغ , ولكنه باصرار وشجاعة اقدم في خطوة اولى , واجرى عملية سحب تدريجي لتلك الشظية , زاعما بان الجسم الغريب الذي استقر بالقرب من الدماغ , اذا ما تم سحبه على مراحل , فان ذلك لن يسبب ضررا او اتلافا لخلايا المخ , وان المصاب ممكن ان يستعيد وعيه بالكامل اذا ما تماثل للشفاء , والدليل على نجاح العمليات الاربعة التي اجراها لراس مريضته , اليوم قد تكلل بالنجاح , وهذا يعد نصرا كبيرا له في الاوساط الطبية وجراحة الدماغ , اما في الجانب الانساني فان متابعته المستمرة , وتاملاته في وجه المريضة , جعلته يشعر وكانها شخص يهمه , بل ينظر اليها وكان ابنته هي التي ترقد في هذه العناية المركزة , حتى انه ذات مرة رد على تعليق زوجته حين سالته عن سبب كثرة كلامه عن حالة تلك المريضة بالذات , قال كانها ابنتي بالضبط , وتلك احاسيسي تجاه مرضاي جميعا .

.

اعادت الممرضة سرى منديلها الى جيبها , بعد ان مسحت دموع فرحتها بشفاء مريضتها , مستعيدة في ذاكرتها الليالي والايام التي قضتها الى جوارها لراعايتها وعلاجها , فكم من الابر والادوية وقناني المغذيات التي القمتها في ذراعها , راجية من الله ان يكتب لها النجاة والسلامة , واليوم ها هي تلمس تقدما واضحا ومشجعا في حالتها الصحية .

عزيزتي ... عادت الى للهتاف في اذن مريضتها ... تسمعينني جيدا اليس كذلك , هل تذكرين لي اسمك , حاولي ان تخبريني

باسمك ... تحركت اليد المنى قليلا , فانتاب الممرضة فرح كبير , ثم اعادت السؤال ... اخبريني باسمك ... ثم راحت تركز على الشفاه , وهي تحاول النطق بصعوبة مع نفس متقطع .. هـ ..هيفاء ...., تفائلت واستبشرت سرى بذلك ... هيفاء اسم جميل يليق بشابة جميلة مثلك , اختي هيفاء انتي الان بخير ولا قلق على صحتك .

الذاكرة التي بدات تعمل بارهاق وبتثاقل , كمن يسحب خطواته المرهقة في تسلق جبل شاهق , تحركت ذاكرة هيفاء لتعمل وتستقبل وتفسر الكلام , ومنه الكلام الغريب عن الشفاء والمستشفى وغيرها , كان السؤال يتولد في داخلها .. اين انا ومن هؤلاء ولماذا ؟

دخل الدكتور جميل على عجل , وعلائم السرور على وجهه ... كيف هي , وراح يراقب الجهاز اولا ثم انثنى فوق وجه مريضته ... انها بحالة جيدة كما ترى ... قالت الممرضة ,

...هذا حسن الحمد لله على افضاله .. ثم امسك بكف مريضته ورفعه نحو الاعلى ثم اثنى الذراع نحو الاسفل , راح يعصر اصابع اليد , مركزا في وجه المريضة , يراقب ردة فعلها ومدى تحسس الدماغ لايعازات الالم , كانت الحاجبان قد تقطبا وانفرجت الشفتان كمن يتالم في منامه .

عال جدا قال الدكتور ... يتنفس الصعداء , ثم ترك الذراع واقبل نحو القدم الايمن للمريضة , فامسك باصغر اصابعه وراح يضغط عليه بين السبابة والابهام , مركزا نظره في وجه

هيفاء , فادارت وجهها نحو الجهة الاخرى مصدرة صوت تاوهات .

اتسعت الابتسامة على وجه دكتور جميل , ولاحت على وجهه مسحة رضا وفرح ... ما اسمها هل عرفتي شيئا عنها .. قالت سرى .. هيفاء , اسمها هيفاء هي قالت بعد ان كررت عليها السؤال ... احسنتي ... قال الدكتور مبتسما ,... هيفاء , نعم انه اسم جميل يليق بهذا الملاك .. اللهم لك الحمد , الان استطيع ان افخر بالنجاح وان اقدم دراسة ناجحة حول حالتها , لينتفع من التجربة كل جراحين الاختصاص , والفضل كله لله .

... اهنئك من كل قلبي دكتور لقد قدمت كل ما بوسعك , وقد جزاك الله خيرا لجهودك وحرصك وانسانيتك ... هذا ماقالته سرى وهي تقف امام الدكتور بكل فخر .

... شكرا لك عزيزتي لقد كنتي خير مساعد لي ولهيفاء , تستحقين الكثير من الخير لصدقك واخلاصك في العمل .

ثم جال في خاطر الدكتور ان يكتب لها ترقية لما لمسه من تميزها وحرص في اداء مهنتها , خصوصا مع هذه الحالة النادرة .

## 17

كانت هيفاء ما تزال في طور الافاقة , وبدات تشعر بالم في ذراعها حيث تنغرس ابرة الكانولة في لحمها , وشعور بالصداع في انحاء راسها , كما بدات تشعر بانها جائعة وضمأنه , وكانها عادت للتو من صحراء لاهبة , كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل , بينما الوعي بات يحرك خلايا الدماغ , ليباشر باصدار اعيازاته الى انحاء الجسد متفقدا اجزاءه , ومستطلعا حال اعضاءه واحدا تلو الاخر , ليجمع تقارير فورية عن كل حالة , حيث باتت تشعر ان قدميها ثقيلتان وان تحريكهما يحتاج الى طاقة وقوة تعجز الان عن اداءها , كانت

الممرضة سرى نائمة على الكرسي بعد ان اصابها الارهاق خلال متابعتها وملازمتها المستمرة لمريضتها هيفاء .

شعرت انها على وعي بنفسها الان , وراحت تتسائل في داخلها ... لماذا انا هنا ؟ واين كنت .. ومن هذه المرأة , ولماذا الحديث عن الشفاء وذلك الطبيب الذي استشعر احاسيس جسدي , ما امره , ولماذا راسي ثقيلة وتؤلمني الى هذا الحد , هل تعرضت لحادث ما ونقلت على اثرها الى المستشفى , متى .. وكيف حصل ذلك وفي اي مكان ؟ ولكن لماذا امي ليست معي , واين هي الان , خارج الغرفة ام في صالة الانتظار , هل اجري لي عملية ؟ واين فريد يا ترى هل يعلم بحالتي وانني راقدة في هذه المستشفى .

صوت صفير الجهاز كان يولد في رأس هيفاء رنين متعاظم , وبدات تشعر بانزعاج والم , تمنت لو ينتهي هذا الصوت الرتيب الذي يدوي في كيانها , صار الصوت يشبه صوت طائرة مقاتلة تمر في الاجواء , شيئا مثل الحلم صار يطغى في مخيلتها , كان صوت الطائرة قد اجتاح الاجواء في ليل ساكن , وهي كانت تحاول الاقتراب من النافذة لترى شيئا , ثم لا شيء بعده , هذا التصور كان يتكرر في ذاكرتها , صوت رنين الجهاز كان يشوش عليها التركيز في الامر , امي اين هي .. امي , كان صوتها قد انطلق وهي مغمضة العينين تكرر .. امي .. امي , اين امي ؟

فزت الممرضة عند سماعها صوت هيفاء , وعاد الفرح ينتابها مرة اخرى اذ نطقت هيفاء من جديد , ذلك دليل على

انها في وعي جيد وان دماغها بدأ يمارس عمله المعتاد في التفكير واصدار الايعازات .. حسنا عزيزتي امك بخير وسوف تزورك لاحقا .

ثم بعد صمت قليل , تحرك راس هيفاء يمينا وشمالا , ماء , اريد ماء .

حسنا عزيزتي ساجلب لك الماء , خرجت مسرعة نحو غرفتها وعادت بقنينة ماء باردة من ثلاجتها , ثم راحت تمسح شفاهها بالماء وبعد لحظات اعطتها بقدر ملعقة , كانت هيفاء تتطعم بالماء لتطفيء رمقها بينما تشعر ببرودته وهو ينساب في جوفها ليشعرها بانتعاش الجسد , ثم علقت سرى .. لايجوز ان اعطيك اكثر من هذه الكمية في الوقت الحاضر عزيزتي .

تاملت هيفاء وجه الممرضة المتدلي فوقها وتساءلت بصوت محشرج مرهق .. اين انا ؟

.. انت في المستشفى يا عزيزتي , لقد كتب الله لك السلامة , وقريبا ستعودين لتمارسي حياتك الطبيعية .

ارادت هيفاء ان ترفع راسها فشعرت بثقل والم كبير ..

.. لا عزيزتي لا تحاولي ان ترفعي راسك فذلك مؤلم , فقط ابقي مسترخية الان .

قالت سرى لمريضتها وهي تحرك الوسادة تحت رأسها .

ثم كررت هيفاء .

... امي اريد امي

... امك بخير كما اخبرتك وسوف تزورك قريبا

تآوهت للالم الذي يدق في راسها ... وفريد اين هو .. هل هو هنا في مكان ما ؟

... كلهم بخير عزيزتي .. وفريد كان هناك في صالة الانتظار , فقط حاولي ان تهدأي , وقريبا ستكون الامور على ما يرام

... كانت الممرضة مضطرة للكذب على مريضتها لتحافظ على حالتها الصحية , كما ان الانفعالات والمفاجئة تعكس تاثيرها على الدماغ مباشرة .

..راسي يؤلمني ..اه رأسي

استمرت بالشكوى من الم حاد تشعر به في راسها ..

بينما جهزت سرى ابرة مسكنة للالام , معها القليل من مادة منومة , خلطتها في انبوب الابرة , وراحت تدفع الخليط في الكانولة المغروسة في ذراع هيفاء ..

... هذا مسكن الام وبعد قليل ستكونين على ما يرام

بدأت هيفاء تفكر بانها كانت مستلقية الى جوار امها , في احدى صفوف تلك المدرسة التي لجأوا اليها ويقضوا ليلتهم , بعد ان فروا من القصف العشوائي الذي طال المدينة , وفي

سكون الليل حيث نهضت من فراشها فجاة لتتوجه نحو النافذة , بعدما سمعت صوت طائرة مقاتلة يشق السكون , بدأ كل شيء يتلاشى , ثم تحولت الذاكرة الى عالم الاحلام , بعد ان غرقت هيفاء في نومها بفعل المادة المنومة , رات كانها مع فريد , يسيران في رواق طويل , وعلى جانبيه علقت لوحات كثيرة كان فريد قد رسمها , وكانه يقيم معرضا للوحاته , بدا يشرح لها عن لوحاته تلك واحدة تلو الاخرى , بعدها تلاشى كل شيء في ضباب , الحلم والوعي وفريد , وبقي النفس وحده يمارس فعل الحياة .

## 18

في الصباح كان الدكتور جميل يزور مرضاه الراقدين في المستشفى ويطلع على حالة كل واحد منهم , ثم وصل الى غرفة مريضته المميزة في اهتمامه , كانت عيناها مفتوحتان , وقد ادارت راسها نصف استدارة مع صوت انفراج الباب , شعر بتفاؤل كبير حين وجدها بوعيها الكامل , حيث انتبهت لصوت باب الغرفة , وادرك تماما ان عملياته السابقة قد تكللت بالنجاح ..

... صباح الخير هيفاء .

اجابته بصوت ضعيف ... صباح النور دكتور .

كيف حال اميرتنا اليوم , بينما باشر يقلب بملف الملاحظات التي دونتها سرى عن حالة المريضة , والادوية والعلاجات التي اعطها اياها خلال الليلة الماضية , ثم نظر الى سرى ,

... اخبريني كيف كانت ليلتك ..

... بخير دكتور شكرا لك , القليل من الارهاق ..

ثم بدأت تشرح له تفاصيل ما حصل حتى ختمتها بأبرة مسكنة اعطتها لمريضتها في الوريد .

... حسنا فعلتي , الان علينا ان نضع البرنامج الغذائي والدواء منذ هذه الساعة .

ثم اقترب من هيفاء يكلمها ...

هيفاء اسمعيني جيدا عزيزتي ,انتي عندما دخلتي المستشفى , كنتي مصابة في راسك اصابة بليغة , والحمد لله الذي كتب لك الشفاء والسلامة , وقريبا سيعود كل شيء الى طبيعته , فقط ان تكوني متعاونة مع اختك الممرضة سرى , خصوصا في تناول الطعام واخذ الدواء , ليستعيد جسدك عافيته وتقوي على النهوض والسير , حيث تبدين ضعيفة جدا بسبب فقدانك لوزنك طيلة هذه المدة .

ثم صمت ينتظر الجواب , تحركت الشفتان بتثاقل قالت .

... نعم سافعل .

... ممتاز هذا جيد ياعزيزتي , والان احكي لي ماذا كنت تعملين هل انتي موظفة ام طالبة ام ماذا .؟

وبعد قليل من الانتظار جاء الجواب منهكا ,

... طالبة هندسة سنة اخيرة .

رائع وممتاز .. هتف الدكتور والابتسامة عالقة على وجهه , نتشرف ان تكون المهندسة هيفاء في ضيافتنا ... وملاطفا اياها .. قريبا ستعودين الى دراستك ثم نكون انا وسرى اول الحاضرين في حفل تخرجك عزيزتي .

لاول مرة ارتسمت ابتسامة مقتضبة على وجه هيفاء .. هذا اكيد دكتور .

ثم اخذت نفسا عميقا , امي , اريد امي , ثم سالت الدموع من زوايا عينيها لتقطران على الوسادة تاركة اثر بقعتان رطبتان , انتبه الدكتور لذلك وشعر بغصة تخنق صدره , ولكنه تماسك انفاسه وفكر انهم لابد ان يتجاوزوا هذه المرحلة الدقيقة حرصا على حياة مريضته .

... عزيزتي هيفاء , كل شيء سيكون على ما يرام وسوف نبعث للسيدة والدتك , ونسمح لها بزيارتك , ولكن ليس في الوقت الحاضر فانتي تحتاجين الى عناية وعلاج , فقط كوني صبورة ومتعاونة مع اختك سرى , والان يجب ان ترتاحي ولا ترهقي ذاكرتك بالتفكير , فقط اخلدي الى النوم , حسنا عزيزتي انا ذاهب الان , الى اللقاء .

هزت براسها ثم ادارت راسها صوب النافذة واغمضت جفنيها .

وعند باب الغرفة تكلم الدكتور جميل الى ممرضته سرى , يوصيها بالتركيز على برنامج الطعام وانه سيرسل لها وجبة دواء جديدة تحتوي على مزيد من الفتيامينات والمقويات لتستعيد المريضة قواها واعصابها الخائرة .

## 19

في الصباح الباكر كانت طيور السنونوات تعمل بنشاط , حيث تطير بتتابع ما بين الحديقة المتاخمة لجامع احمد يوسف باشا , والابنية المجاورة , تنقل بمناقيرها ذرات التراب وعيدان صغيرة واعشاب لتبني اعشاشها على الجدران او في الشرفات المواجهة للشمس , فتبدوا في طيرانها الرتيب كانها مبرمجة على الحركة , وان دور كل طائر ياتي بنسق خلف طائر اخر يسبقه دائما في اداء دوره , لوضع ما يحمله من مستلزمات البناء , بينما في باحة المسجد , كانت حشود من حمام وزرازير تتناول حبات الحنطة التي ينثرها الرجل الكهل ليطعمها , كان فريد قد استيقظ مبكرا يتناول قهوته الصباحية

, وهو يتابع حركة تلك الطيور , ويستنشق النسيم البارد العذب الذي ياتي من طرف الجبل المقابل , تنساب من سفوحه البساتين والحدائق المطرزة بانواع من الزهور , شعر بنشاط وحيوية , وساورته رغبة في الرسم , حيث اهمل هوايته وفنه منذ زمن ليس بقليل , قال لعلي اليوم اخرج بنتيجة مرضية .

احضر سيبته ومجموعة من الفرش والالوان , ثم جلس يتامل المنظر الذي امامه , وضع نقاطا في اعلى اللوحة واخرى في اسفلها , ثم سحب خطا افقيا خفيفا , ركز النظر نحو جبل القلعة امامه , تحته كانت بساتين موزعة ما بين المجمعات السكنية , رفع فرشاة الرسم امام عينه باتجاه الجبل , ثم وضع قياسا تقديريا لارتفاع القمة , فكر انها ستكون لوحته الاولى في جانكري , قرر ان يستمر برسم المناظر الطبيعية لان الاجواء تساعد على ذلك , الجبل في اعلى قمته مجموعة اشجار معمرة , وتحته بستان ونهر صغير , ومجمعات سكنية موزعة بصورة هندسية , قد يكون منظرا عاديا وخاليا من الاثارة .. قال ,, المهم ان يكون منظرا ذا فضاء واسع , شعر بان كل شيء من حوله يتحرك بحرية , فالطبيعة الواسعة .. قال .. وبيئة ممتدة لا تحدها حدود , فكلما ضاقت البيئة ضاقت الكائنات ببعضها , مستذكرا مجتمعه الذي شاعت فيه الشعارات والوعود الكاذبة , حتى شاع القتل في اوساطها , واصبح عملا يوميا لابد ان يمارسه القتلة كل ساعة , وعلى مدى الايام بات ادمانا لهم , قال بحسرة .. باتوا مدمنين على رائحة الدماء , ثم خطر في عقله اجواءه الفنية والثقافية التي هي الاخرى تعاني من النفاق والكذب والمديح الزائف الذي

شاع في اوساطها , تامل قليلا ثم قال لنفسه .. يداهنون اصحاب السلطة والمال , ويجارونهم في افكارهم المريضة , فقط من اجل اثارة الانتباه نحوهم نفاقا وتملقا , لا لشيء اخر الا النفاق .. او لاجل بضع دنانير تشبع غرائزهم الفاسدة , متناسين او متجاوزين حقوق ومظالم شعب باكمله , فاي عاهات نفسية تلك , واي دعاة اولئك الذين يصمتون , يتناسون التهميش والاقصاء والسجن والتعذيب التي طالت ابناء جلدتهم , بل انهم ذهبوا ليكتبوا مقالات وقصص وروايات , يتهمون فيها الابرياء الذين وقع عليها الحيف , يتهمونهم بالخسة والخيانة , لانهم طالبوا بحقوق مشروعة , ثم كالوا عليهم بالكثير من التهم الباطلة .

اشعل سيجارة وعاد يتامل الافق الازرق النقي الذي امامه , مستذكرا اخر لقاء جمعه مع عدد من زملاءه الفنانيين والشعراء , حين دار بينهم حوار عن الفن الزائف والثقافة المصطنعة , التي باتت بالانتشار في الاوساط الفنية والادبية , قال .. مجرد رداء لكثير من العهر والسمسرة الفاسدة .

ثم عاد يفكر باللوحة , في اسفل قاعدة الجبل , سحب خطا افقيا , وضع نقطة في منتصفها ليوازي راس الهرم الذي في قمة الجبل , ثم راح يوزع مكونات اللوحة , والى الطرف الايمن من لوحته رفع ماذن وقباب متلاصقة ببعضها , ناسخا شكل مسجد احمد يوسف باشا الذي يظهر جزءا كبيرا منه في منظور المشهد الذي امامه .

مر اكثر من نصف ساعة , وفريد غارق في وضع مكونات لوحته , ثم فجاة مثل جرس رن في مخيلته ونفسه , هيفاء , وجهها عيناها شعرها , كلماتها الرقيقة , نظراتها قوامها وحتى ميشتها , كل تلك اللقطات دارت في راسه وراحت تلف افكاره , حتى اضطر ان يرمي الفرشاة من يده , ويدخل مسرعا نحو غرفته ليخرج تلك اللوحة المغلفة بورق هدايا , كان يحتفظ بها ويحرص عليها اشد الحرص , فازال عنها الغلاف , لتنكشف امامه اية من السحر والجمال , حيث اطل وجه هيفاء بابتسامة مشرقة ونظرة فيها الكثير من الامل ,

حتى انه لم يتمالك نفسه وهو ينظر في وجه اللوحة التي كان يلوي تقديمها لهيفاء في حفل تخرجها من الكلية , فضمها الى صدره , وانهار على ركبتيه يبكي وينتحب بصوت خاشع وجسد مرتجف , يردد اسمها ويندب حرمانه وضياعه .

## 20

الطريق بين محلة (ديمير يول) و(بارك اردوغان ) , بعيدا ويقدر بمسافة ثلاث كيلومترات , لكنه كان مصرا على اكمال الطريق سيرا على الاقدام , وبالرغم من مرور حافلات النقل العام الى جانبه , ومصادفته لمحطات سيارات التكسي , الا انه كان يمضي قدما كمن يشارك في سباق مارثوني يجد سيره حتى يبلغ خط النهاية , ربما فكر ان يكسر حاجز الركود الذي انتباه خلال الاشهر الماضية ... الحياة لن تنتهي عند هذا الحد , لابد ان تقاوم يا فريد , فالامتحان صعب والطريق لبلوغ الهدف شاق وطويل ... كان يسير على ارصفة تظللها الاشجار فلا يتعرض لقرص الشمس الا بين الفسح التي تصادف ما

بين شجرة واخرى , والارصفة مكسوة بالعشب الاخضر وعلى طرفيها غرست انواعا من الزهور .

اجتاز الجسر الصغير الذي يربط (البارك) بالمدينة , اما الطريق المحاذي , فانه ينعطف نحو تسلق الجبل باتجاه القرى المتاخمة للمدينة , بوابة البارك المصنوعة من الحديد , كانت مزخرفة ومن الاعلى كانت على هيئة خوذة جندي عثماني , كانها بوابة احد قصور السلطان سليمان , وعند الركن الايسر منها اقيمت جدارية بطول خمسة امتار وارتفاع مترين تقريبا , كتب عليها بارك اوردغان بحروف بارزة ضوئية , ثم امتدت امامه حديقة من زهور ملونة ومتنوعة , اذا ما رفعت نظرك عن الجدارية باتجاه سفح الجبل , تجد طائرة ركاب نوع ايرباص قابعة وسط سياج من اشجار الزينة , وذا تفحصت هيكل الطائرة ستجد انها تم تجميعاه في المكان من دون ان ينقص من مكوناتها شيئا , قمرة القيادة والاجنحة , والمحركات كاملة وكانها قد حطت للتو في هذا المكان الاخضر , بل ان اغلب سكان المنطقة يسمون المكان بارك الطائرة , قال فريد ... الناس يحبون ان يسموا الاشياء بغير اسمائها , انه مرض العصر لا محالة

سار في الرواق الوسط الذي اكتست ارضيته برخام ابيض مصقول , ومطعم في جوانبه برخام احمر غامق , وعلى جانبيه كانت حدائق ممتدة مكسوة بعشب اخضر , مطوقة بانواع كثيرة من الزهور التي تطلق عطورا زكية , انتبه ان توزيع النباتات الجميلة وهندسة الحدائق تبدو ذات ذوق جميل , فالاروقة المتوازية والمتقابلة داخل البارك , كانت عبارة عن

صورة مكررة للرواق الوسطي , فقط هو اوسع من الاخرى في قياسه , ليستوعب اكبر عدد من الوافدين الى المكان .

يمتد البارك على مساحة تقدر بهكتار ونصف , موازيا لنهر صغير مغلف بالحجر , النهر كان عبارة عن جدول يجمع المياه المنسابة من عيون السلسلة الجبلية الممدة شمال المدينة .

كان فريد وهو يتجول في انحاء البارك ساعيا لبلوغ نهايته عند الطرف الثاني , راح يشغل ذاكرته بالتمعن في الجماليات التي اضيفت على المكان , يدقق بالنصب والمقتنيات والمحجرات التي تم هندستها بدقة وعناية في هذا المكان الفسيح .

هنا يعرفون كيف يعتنون بالطبيعة ويزينوها حتى تبدوا اكثر جاذبية ... فكر في ذلك بينما انعطف ناحية السفح المتدرج بالخضرة والزهور حتى كانها الجنائن المعلقة , ثم ارتقى صعودا يسير في طريق طويل , وضعت على جانبيه مظلات , الى جانب كل واحدة منها انشيء موقد حجري للشواء , اما الجانب المتاخم للجبل , فزين بانواع مختلفة من اشجار الفاكهة , وبعض الصنوبريات واشجار البندق , وفي الجهة المقابلة نحو الاسفل حيث طريق معبد بالاسفلت , ياتي خلفه مباشرة , ملاهي ورياض الاطفال , يتاخمها في الوسط ملعب لكرة القدم , محاطا بسياج مرتفع , كسيت ارضيته بمادة اسفنجية خاصة , بلونين الاخضر والاحمر , اما طرفي الملعب فاقيمت منصات لاستيعاب عدد محدود من المتفرجين , وعند الطرف الايمن من الملعب ذاته , اقيم بناء مغلف بالزجاج

المظلل بلون بني , ليمثل مكانا لاستراحة اللاعبين , وحمامات لكلا الجنسين , وخلفها اقيمت ساحة للعب التنس كانت مجهزة بشكل كامل , يردفها ابنية جميلة ومغلفة بالمرمر والحجر المصقول , بدت كقاعات للحفلات الخاصة والعامة , يجاورها مسرح صيفي الحقت به بناية صغيرة معدة لان تكون كافيتيرا , اما الجهة الاخرى لملاعب الاطفل حيث اقيمت ملاعب , وضعت فيها معدات رياضية للكبار , يفصل بينها وبين الكافتيريا حديقة زهور ملونة , والخيمة البيضاء المرتفعة والتي تغطي مساحة واسعة وسط البارك , كانت عبارة عن مطعم وكافيتيرا يقدم فيه انواعا من الماكولات التركية , ويتوفر فيها كل انواع المشروبات كالشاي والقهوة والمشروبات الغازية , وايس كريم مطعم بالفواكه , ثم اقيم بناء محاط بفناء هلالي واسع , كتب عليه مسجد للصلاة وعلى يساره من جهة البوابة الرئيسية , اقيم نصب لقلب كبير يحمل اسم المدينة , وكلمات ترحيب بضيوف المكان .؟

بقي فريد يتنقل , كالفراشة ما بين حديقة واخرى داخل البارك , مستاثرا بالاهتمام والخدمات التي وفرتها الحكومة لشعبها او للضيوف الوافدين او للسياح , مقارنا تارة مابين هناك وهنا , ما بين الملايين التي تتسرب الى جيوب الفاسدين واللصوص , وبين الصدق والامانة التي تعمل بها هذه الكوادر الهندسية والفنية التي كما يبدو للعيان انها حريصة كل الحرص على اظهار جمال وفن وبهاء المكان , بينما اخرج مفكرته وراح يرسم بعض المناظر والنصب التي اثارت

فضوله الفني , والتقط بكامرته بعض الصور ليخلد ذكرى المكان وجمالياته .

## 21

مرت الايام والاسابيع , وهيفاء تتماثل للشفاء التام , باتت معتادة على الجلوس امام نافذة غرفتها في الطابع الثالث من مبنى مدينة الطب , تتابع جماليات بغداد ونهر دجلة المنساب في الجوار , حركة زوارق صيادي الاسماك , وحركة المارة والناس , شاكرة لربها الذي انقذها من هلاك محقق , بينما الغصة في حلقها تعتصر والالم في صدرها , اشتياقا لامها وفريد , وعلى الرغم من انها باتت تقضي ساعات طويلة مع سرى التي اضحت صديقة مقربة اليها , كانت تحكي لها عن حياتها وعن تعليمها وافكارها , وعن علاقتها مع فريد وشخصيته الجذابة , وانهما كانا على وشك الزواج بعد اكمالها لكليتها وحصولها على الشهادة الجامعية , الا ان الاقدار شاءت ان يفترقا على هذا الحال , والانتظار صار شيئا مملا , حتى انها فكرت بالهروب من المستشفى , لو ان سرى او

دكتور جميل اصرا على المماطلة في موضوع السماح لها برؤية والدتها , او حتى الاتصال بها او مع فريد , او احد من اقاربها , وعندما حضرت سرى , تحمل معها طعاما لفطور الصباح , رفضت هيفاء تناوله , واخبرتها انها حزينة وغاضبة وتشعر بالملل وقلقة جدا بشان والدتها واهلها , واليوم لابد من وضع حد لهذه المسالة ,

... حسنا عزيزتي , قالت سرى وهي تحاول ان تهديء من روع هيفاء ... انا اليوم سوف اتصرف لاجل مساعدتك في هذا الشأن .

وقفت هيفاء امام سرى تستحلفها , هل تعديننني بذلك .

... اعدك بذلك , فقط تناولي فطورك ثم نفكر في ايجاد حل لهذه المسالة .

جلست هيفاء امام الطاولة واخذت كوب الشاي بينما قدمت لها سرى قطعة من الجبنة غصبتها على تناولها ,

... هل لديك احد من اقاربك في بغداد .

حركت هيفاء براسها .

... نعم بيت خالي , وكنا انا ووالدتي نسكن معهم في نفس الدار قبل ان التحق بالكلية قبل سنوات .

تفائلت سرى كثيرا

... هذا رائع اذا اذكري لي العنوان وانا ارسل اليهم من يخبرهم عنك .

استغربت هيفاء لذلك ز

... يخبرونهم عني .. لماذا اليس من المفروض انهم يعرفون ذلك .

قالت سرى متجاوزة الاحراج في كذبتها السابقة ,

... لا يا عزيزتي هم لا يعلمون عنك شيئا

كيف ذلك ... قالت هيفاء متفاجئة .

... لان لا احد يعلم انك راقدة في المستشفى منذ خمسة اشهر مضت , ولانك نقلت مع مجموعة من الجرحى احلتم الينا من طواريء مستشفى كركوك في تلك الليلة , ولان ضحايا القصف اختلطت جثثهم بسبب احتراق الكثير منهم , لم يحددوا هويات واجناس الضحايا , وكذلك تاه عليهم عدد الجرحى واسمائهم , فقد ظن اغلب اهالي الجرحى ان ذويهم من ضمن الشهداء , كما لم يسأل عنك احد , وربما اكتفى اهلك بالسؤال عنك في مستشفى سامراء التي نقل اغلب الجرحى اليها , وربما لانك تفتقدين الى الاوراق الثبوتية ولم يتمكن مستشفى كركوك من تدوين اسمك الصريح , بل اننا ادخلنا اسمك رمزا في سجلات المستشفى , وطيلت فترة فقدانك للوعي كنا نستخدم رمز ( م ت ) حتى عاد وعيك واخبرتينا عن اسمك الصريح .

... يا الهي ما كل هذا العذاب , كيف هي امي الان وما مصيرها يا ترى , ثم اجهشت بالبكاء .

هونت عليها سرى الامر واقسمت امامها انها مستعدة للذهاب الى بيت خالها , فقط عليها ان تتذكر العنوان ليتسنى لها التصرف حيال ذلك , صمتت هيفاء لبرهة من الوقت راحت تستذكر بيت الخال , في حي الكرادة بالقرب من الاسواق المركزية القديمة , عند محطة الوقود في الزقاق المجاور , البيت الرابع الى الجهة اليمين , بيت ابو سامر , كانت تصف لسرى العنوان وهي تتخيل طفولتها ونشاتها في ذلك الدار الذي ضمها وامها بحنان ورعاية بعد وفاة والدها

... لا عليك عزيزتي , اليوم سوف ارسل من يخبرهم عنك , ولننتظر النتائج , اما الان هيا لتاخذي العلاج وتلجاي الى الراحة على السرير , فجسدك لايزال بحاجة الى المزيد من الانتعاش .

## 22

في الصباح الباكر استيقظت هيفاء كعادتها , تتابع منظر بغداد من نافذة الغرفة الواسعة , مستذكرة ايام طفولتها والاماكن التي كانت والدتها وخالها ياخذونها اليها , وبنات وابناء الخال الذين كانت تلعب معهم ويقضوا ايام العطلة متنقلين ما بين مدينة الالعاب والمحال التجارية , واسواق وازقة بغداد الجميلة , بينما قلبها يتحرق شوقا لوصول سرى في اية لحظة لتعرف منها نتائج ما وعدتها به في ارسال خبر الى بيت خالها , كانت عيناها تتنقل ما بين الساعة على الجدار التي كانت تقترب من التاسعة صباحا , والنظر عبر النافذة نحو الباب الرئيس للمستشفى لعلها تشاهد سرى وهي قادمة , وطال الانتظار وراحت تشعر بقلق , بعد قليل انتابها شعور بالسام ,

حيث ملت الانتظار وشعرت ان راسها باتت ثقيلة بسبب القلق والتفكير بالامر , عادت الى السرير , واغمضت عينها تفكر بسرى وما يمكن ان توصلت اليه , فجاة فتح باب الغرفة , دخلت سرى تمشي على مهل , كانت هيفاء غارقة في غفوة بعد ان اتعبها الانتظار , تاكدت انها نائمة , اشارت بيدها , دخل رجل كهل يمشي على مهل وتوجس ينظر بحنو نحو هيفاء , ودخل شاب من خلفه وامراتان , اجهشت المرأة بالبكاء حتى فزت هيفاء لسماع صوتها , نظرت برهبة نحو الوجوه وبعد لحظة صرخت , امي .. امي الحبيبة , فاحتضنتها وطفق البكاء في الغرفة و المنظر المهيب العطوف , ماساة انسانية , الام وابنتها الوحيدة , كنت اظنك ميتة , لم يخبرني احد انه راك على قيد الحياة , ولا حتى مع الجرحى , فالكثير من الجثث كانت محروقة واخرى استحالت الى اشلاء , وانا افقت في مستشفى سامراء , وسالت عنك وعن بقية الجرحى , لم تكوني من بينهم , كنت في نحيب ونواح على فقدانك وحيدتي ابنتي الحبيبة الحمد لله , ان الله قد احياك بعد موتك يا ابنتي , يا روحي يا وحدتي ,... كانت القبل المتبادلة بينهما , دليل على جسدين بروح واحدة , ثم الخال وابنه وزوجته , جلسوا يطوقون هيفاء من كل جانب وهي تكاد لا تصدق نفسها كانها في حلم , ثم شكرت سرى , وهي عاجزة عن تقديم الامتنان لها , جلست تحدثهم عن هذه الانسانة , ووصفتها بانها ملاك رحمة حقيقي , قل نظيرها على الارض , انت من الان اختي وصديقتي المقربة , في مساء ذلك اليوم , كان مجموعة من الاطباء والدكتور جميل وخالد وسرى وجمع من العاملين في المستشفى , يودعون المريضة التي نجت من

الموت باعجوبة , والتي قضت تحت رعايتهم اكثر من خمسة اشهر مضت , وها هي الان تعود لتمارس حياتها الطبيعية بكامل قواها العقلية والجسدية , وقبل ان تدخل السيارة , كان اخر من ودعته الدكتور جميل , قالت له انك الاخ الاكبر , ولن انسى انك بذلت كل ما بوسعك من اجل ان تنقذ حياتي , لن انسى فضلك وساذكرك في دعائي في كل صلاة حفظك الله ايها الطبيب الشهم ,

غادرت هيفاء نحو حياتها من جديد , واول شيء خطر في عقلها بعد ان خرجت السيارة من المستشفى ان تبدا البحث عن فريد , مليك العقل والقلب .

## 23

غادر شقته يسير على غير هدى , لا فكرة محددة , فقط اراد ان يتجاوز حالة الملل التي يشعر بها , مرورا بالاسواق يطالع زجاج المحال التجارية , يقرأ لوحات الاعلانات , يتوقف امام بعض المقاهي , لاشيء يملأ الفراغ الذي في القلب والذاكرة , قطع الطريق الذي يتوسط السوق صعودا حتى بلغ حديقة (الكراتكن) ,حيث يجتمع العراقيين المغتربين تحت شجرة الكستناء المعمرة , وهم في تواجد مستمر تحت تلك الشجرة , حتى بات المكان يعرف بحديقة العراقيين , هناك يباع خبز التنور العراقي , واطفال عراقيون يبيعون (الصمون الحجري و فلافل وعنبة ) كل شيء هناك بنكهة الوطن , ياتي المغتربين الى هذا المكان ليشكوا سوء حالاتهم , ويطرحون مشاكلهم , منهم يبحثون عن معونة , وعن مترجم يعينهم في حل

مشكلاتهم , يبحثون عن شقة باجور اقل , يبحثون عن عمل , كل شيء في هذا المكان وتحت هذه الشجرة بالذات , المناقشة في كل المواضيع , هنا سوق تناقل الاخبار .. قال فريد لنفسه , بينما طرق سمعه حديث عن تهريب اللاجئين عبر البحر الى اوربا , كان الشغل الشاغل للمهاجرين في تلك الايام ,راح ينصت للحوارات بينما يتفقد بائعي الخبز العراقي , ثمة شاب يتحدث الى رجل كهل ,

... قلت لي انك من بغداد , ... نعم انا من الاعظمية , وعددنا خمسة افراد وطفلة ...

... حسنا التكلفة خمسين ورقة , ويعني بذلك خمسة الاف دولار , احتج الرجل الكهل ,

... قلت لي سوف اساعدك ,

... اي عم , الطفلة لم احتسبها , علما انني اخذ على الفرد الواحد اثنى عشر ورقة , لقد راعيتك كثيرا , وانت مخير , بعد يومين او ثلاث لدينا زورق سوف ينطلق من ازمير , اذا قررت السفر اتصل بي وانا ارتب لك الامور .

... حسنا اخي سجاد , في المساء اعطيك القرار النهائي .

توقف فريد يتابع الحوار , كان الى جانبه شاب اخر متوقف بانتظار دوره ليحجز مكانا على ظهر القارب , فكر فريد بسرعة , ماذا لو خرجت مع هؤلاء لاصل الى اوربا , هناك حيث تنتهي سلسة المعاناة , ويفتح طريق جديد للمستقبل ,

التفت سجاد نحو الشاب الذي بانتظاره , ... تفضل اخي , قال الشاب على عجل ,

... نحن ثلاث شبان , ونريد ان نسافر خلال هذا الاسبوع ,

... حسنا اكتب لي الاسماء على الورق لكي ارسلها , انتم متى تغادرون الى ازمير ,

... الليلة مساءا ,

....حسنا سيكون هناك حجز غرفة في اوتيل ( دنيزليك) , وهناك تدفعون نصف مبلغ الرحلة , وبعد وصولكم الى جزيرة (ساموس) في اليونان تدفعون باقي التكاليف ,

... حسنا قال الشاب , وعلى وجهه مسحة تفاؤل , بينما التفت ليبحث عن قلم صادفه فريد امامه مباشرة , سأله , ... لطفا لديك قلم , تفاجأ فريد بالطلب , بينما يخرج القلم من جيبه ,واعطاه للشاب , ثلاث اسماء دونها على قصاصة علبة سجائر , ثم ناولها لسجاد المهرب , ثم تدخل فريد , قال ... من فضلك , ... نعم , قال سجاد , ويبدوا على ثقة تامة بنفسه, ... لديكم رحلات اسبوعية ام شهرية الى اليونان , ابتسم الشاب , ... اخي يوميا , واحيانا قاربان او ثلاثة في يوم واحد , ... رقم هاتفك لو سمحت قال فريد , اكتب , وراح يدلي له رقم هاتفه , سجاد .. اسمي سجاد , ويمكنك الاتصال بي في اي وقت شئت , ثم تدخل رجلان اخران , استقبلهما سجاد وراح يجيب عن تساؤلاتهم حول الهجرة الى اوربا , كذلك يرومون الهجرة عبر البحر .

عاد فريد الى الشقة , يحمل في نفسه مشروعا جديدا للسفر الى اوربا بواسطة القوارب البلاستيكية , معتمدا في نفسه فكرة المغامرة , حضر فنجان قهوة واشعل سيجارة, ثم جلس يفكر في هذا الامر , ... قال هنا اصبت بالملل , وتكرار المناظر والصور , لا جديد , لا خطوة نحو الامام , كانني هنا مجمدا الى حين , الى ان اجد فرصة اخرى للانطلاق , وهاي هي الفرصة مؤاتية ولكنها تعتمد على المغامرة , ثم فكر قليلا .. اظن ان اغلب خطوات النجاح تعتمد على مغامرة , شجاعة واقدام مثل جندي يصوب بندقيته نحو هدف بعيد , ان اصابه بدقة ظفر , وانا اصوب افكاري بعيدا نحو المستقبل , علي ان استثمر ما ورثته عن جدي جبار الضاحي , وان اكون شجاعا ولا ادع للخوف طريقا الى نفسي , اريد الفرار من احزاني وذكرياتي , وابحث عن فرصة تغرقني في عمل , وفي لهو فكري ونفسي وجسدي , هنا اشعر ان كل شيء معطل , حتى محاولاتي في رسم لوحة باءت بالفشل , احتاج الى فضاء اوسع افرد فيه جناحاي بحرية , ... راح يتامل سيبته واقلامه امامه على الطاولة ... قال , .. هناك يمكنني ان افتح مشغلا فنيا , وتجد لوحاتي طريقها نحو جمهور يحترمون الموهبة , ان اجد جمهورا يحسن قراءة الافكار , والاوربيون يعشقون الاعمال الفنية ذات الطابع الشرقي , .. ثم فكر بنماذج يمكن ان يضعها , فكرة اولى نحو طريق انجاح مشروعه , ... فكر , ماذا لو رسمت لوحات من ذاكرة تراثنا , اكيد سيعجبون بها , تنور الخبز , ومسقوف السمك على شاطيء النهر , وقوارب الصيادين , ان اعكس فنا انطباعيا او تشكيليا اضيف معها نماذج تاريخية , برج بابل القديم مثلا , لوحة اشور بنيبال

يحمل قوسه ويعتلي ظهر الاسد , ارسم ايضا زقورات ومسلات , كذلك يمكن ان اقيم معرضا فنيا ما بين حين واخر , ارسم شناشيل بغدادية , ونخيل البصرة , ولوحات عن بساتين الحمضيات في ديالى , الاكلاك ترسوا الى شريعة تكريت , لوحة لمنارة الموصل الحدباء , قلعة اربيل التاريخية , وصورا كثيرة اخرى تزدحم بها ذاكرتي الفنية , يمكنني ان انقل لهم جماليات وطن ضاع فيه كل شيء واتلف الا ما بقي منتصبا في الذاكرة , هم يقدرون التاريخ , واشعل سيجارة اخرى وعاد يتأمل بينما تتسع الفكرة في نفسه ,... ولما لا الحق باولئك الذين وصلوا شواطيء اوربا , هم ينعمون الان بسكن مناسب ويوفرون لهم احتياجاتهم المادية والنفسية , انا بحاجة ان اغير اشياء روتينية باتت تسيطر على عقلي وكياني منذ امد بعيد , ثم , اخذ نفسا عميقا وقال بمرارة ... كل شيء يتغير الا ذاكرتي المشبعة من جذور المدينة والوطن , هناك يجب ان انساه , انسى المدينة وشواطئها وانسى هيفاء , ثم صمت للحظة , حول نظره عبر النافذة كانه يبحث عن شيء بعيد , مر عام وانا اذكرهم جميعا , كيف للمرء ان ينسى وطنه واصدقائه واحبته الذين وريت اجسادهم تحت التراب .

ذهب نحو الغرفة , تفحص حقيبة سفره , نظر الى الملابس , قال ليكن الحمل خفيفا , اخذ طقم ملابس واحدا فقط , احتاج الى المنشفة وادوات الحلاقة وفرشاة الاسنان , وسيبة الرسم ولوحاتي , عاد الى الصالون ثم عاد يفكر من جديد , الطريق بين ازمير وجزيرة ساموس لا يستغرق اكثر من ساعة واحدة , والطقس هذه الايام يساعد على ركوب البحر , الفرصة تاتي

مرة واحدة يا فريد , هناك الاف من الشباب عبروا ووصلوا اوربا , وهم الان بحالة جيدة , علاما الانتظار اذا , انا لا افكر بالعودة الى الوطن الذي خطف هيفاء , وخطف كل امالى واحلامي , وانا هنا مجرد عابر سبيل , في محطة انتظار ونقاهة , وقد انقظت ساعاتها وايامها , لابد ان افكر في الجانب الاخر , انت لا تعرف الياس يا فريد , وها هي قد جاءتك الفرصة راكعة امامك , فلا تتركها تفلت من بين يديك , النقود جاهزة والزورق جاهز , فقط ان تخطي الخطوة دون تردد ودون خوف او وجل , هيا يابن ابيك وجدك , افعلها ولا تخف .

فجاة اخرج هاتفه من جيبه , وضغط على اسم سجاد المهرب , بعد لحظات جاء صوت المتحدث من الطرف الاخر , نعم تفضل , ... انا اليوم التقيتك هناك عند حديقة العراقيين , نعم اهلا بك ... اريد العبور الى اليونان , وفي الغد اغادر الى ازمير , ثم استرسل ... عنوان الفندق هناك لو سمحت , ترسله الي في رسالة , نعم افهم شكرا لك , قلت لي كم اجور الشخص على ظهر الزورق ؟, الف ومئتين دولار امريكي , نعم انا بمفردي , حسنا هناك اسال عن شخص اسمه عماد , حسنا الى اللقاء ...., اغلق الهاتف وشعر براحة تامة في نفسه , وكأن هما ثقيلا ازيح عن صدره .

في المساء هيأ كل شيء , حقيبة على الكتف فيها اشياء بسيطة وخفيفة , واهم ما كان يعتني به لوحته , صورة هيفاء , غلفها جيدا باكياس بلاستيكية ووضع عليها الشريط اللاصق خشية ان يصيبها ماء البحر , ثم اتصل بمكتب العقار يبلغه

بانه صباحا سوف يخلي الشقة ويغادر , اخبره ان يترك المفتاح عند بواب العمارة .

تلك الليلة لم ينم الا لساعات قليلة , حيث اختلفت لديه الافكار وتضاربت الاراء في داخله , ظن انه قد تعجل في اتخاذ قرار عبور البحر الى اوربا , ثم بقي مترددا وحائرا , ولكنه في الصباح ومع صوت اذان الفجر , ارتدا ملابسه وحمل حقيبته وغادر الشقة نحو كراج الاوتو باص حيث قطع تذكرة سفر الى مدينة ازمير ...

## 24

النجاة من موت محقق معجزة , وعودتي الى الحياة من بين عشرات الضحايا معجزة كبيرة , له الحمد والمنة , راضية بما قسمه لي ربي في هذه الحياة , واكرمني بالعودة الى امي واهلي , ها انا اعود بعزيمة قوية , افكر بمتابعة تعليمي , وابحث عن فريد لنتزوج , ونبدأ حياتنا من جديد في بيت يطوقه الجمال , ويخيم عليه الفرح والسعادة , كفى للهموم والاحزان التي ادمت قلوبنا , الان لا يهمني ما يحدث على ارض الواقع , انا ابحث عن فرصة لاعيش حياتي بحرية , كفانا قيودا , كفى تخريب وقتل , اوقفوا هذه المهازل , وضعوا حدا للمجرمين والسراق والمندسين , اريد ان ارتب حياتي , انا وكل اناث ونساء هذا الوطن , والان ها انا منذ اشهر ابحث عن فريد او من يوصلني اليه , ولكن دون جدوى , كانه فص ملح وذاب , اين اختفى وكيف السبيل اليه , يال حيرتي .

قالت الام , ... كل شيء نصيب يا ابنتي , لعله الان قد تزوج من امرأة اخرى , وربما يسكنا معا في كوردستان او سافر معها الى الخارج .

مستحيل قالت هيفاء , انا اعرف فريد جيدا , هو الان قد يكون حزينا مشردا , صدقوني انا متاكدة من حبه وصدقه ووفاءه , انا اراه في قلبي انه يفكر بي الان , كما افكر به وابحث عنه .

تدخل ابن خالها سامر ... , لقد قلت لك بالامس , فقط امنحيني اسبوعا واحدا , وانا سوف اعرف لك عنوان اخوه الوحيد ربيع , قيل لي انه نازح مع عائلته في كوردستان , ومن المؤكد ان فريد يسكن معه الان , فقط ننتظر صديقي رزكار , لديه معارف في دائرة امن اربيل , وسوف ياتي لي بعنوان سكنه ان كان هناك , او في احد مدن كوردستان .

تدخل الخال متفائلا ,... هذا هو الحل السليم , الان لا ترهقي نفسك وافكارك اكثر , لننتظر جواب الرجل لعله يعثر على العنوان ونسافر جميعا الى هناك , نذهب الى بيتهم مباشرة فنجعلها مفاجاة لفريد , ان يراك على قيد الحياة , الان فقط هدئي من روعك وانتظري النتائج .

## 25

ما اقسى ان ترتبط مشاعر الناس باوان الرحيل , كل شيء في حياة فريد ومن هو على شاكلته محطات سفر , تقلهم ما بين مدينة واخرى, وابواب الغربة تقذف النازحين والمهاجرين من شاطي الى اخر , ومن مرفأ الى مرفأ , ومن محطة قطار الى اخرى , ... لا وطن لحامل الحقيبة , قال لنفسه وهو يسير في طرقات مدينة ازمير , تلك المدينة الكبيرة الواسعة التي تقع على مشارف البحر المتوسط , لفحته نسمة هواء رطبة , راح يستنشق رطوبة البحر ينتابه احساس مغاير , قال .. منذ متى لم تشم رائحة الشاطيء يابن جدك , ثم انتابه حنين خفي لشواطيء تكريت , ولكنه تقصد ان يغيبها عن ذاكرته ونفسه , لانه وكما عزم على نفسه , بحاجة ان يكون قوي الاعصاب نشيطا في عقله وجسده , ثم سأل صاحب احد الاكشاك عن فندق( الدنيز ليك) , اشار له نحو مبنى ضخم يواجه البحر , توجه اليه فورا , سال موظفة الاستعلامات عن

شخص عراقي اسمه عماد , قالت له نعم هو من زبائن الفندق , ولكنه لا يعود قبل المساء , قرر فريد ان يستاجر غرفة في نفس الفندق , كان بحاجة لان يستحم وياخذ قسطا من الراحة .

تناول غداءه في مطعم على رصيف البحر , ثم جلس يتامل زوارق صيادي الاسماك , والبواخر التي تمر من امامه , طيور النوارس كانت تحلق فوق الشاطيء , بينما العشرات من الناس كانوا يعومون ويلعبون في شاطيء البحر , بعضهم مستلقي على الرمال , ثمة اطفال يبنون بيوتا في الرمل , ونساء يعرضن اجسادهن للشمس , كان الباعة الجوالون يبيعون الايس كريم , واخرين يبعيون قهوة او شايا , بات شاطيء البحر حافلا بالحركة , كل تلك المشاهد كانت تمثل لفريد لقطات فنية رائعة , لو سنحت له الفرصة الان لاستخرج سيبته وفرشاته ورسم صورا بارعة عن هذا المنظر الجميل , الا انه لم يكن مستعدا لذلك , بل راح يفكر في زوارق المهربين , حيث انه لم يشاهد اي زورق يحمل قوافل للمهاجرين , ثم فكر ... ربما الانطلاق من مكان اخر.

مع مغيب شمس ذك اليوم , عاد فريد نحو الفندق يبحث عن عماد العراقي , وجده جالسا مع ثلاثة شباب في قاعة الاستقبال , ذهب اليه واخبره بانه لديه حجز على اقرب زورق ينطلق نحو جزيرة ساموس اليونانية , استقبله الرجل ورحب به وطلب منه ان يشاركهم في جلستهم , كان حديث عماد موجه نحو فريد والشبان الثلاثة الذين يشاركونه الطاولة , الان تدفعون لي نصف المبلغ , وعندما تصلون الى جزيرة

ساموس سيكون هناك جعفر بانتظاركم , حيث يرتب لكم وسيلة النقل الى اثينا العاصمة , تدفعون الى جعفر بقية المبلغ , الانطلاق من امام بوابة الفندق سيكون في تمام الساعة الواحدة ليلا , والزورق يستغرق ساعة او اكثر في عرض البحر , وبحسب الظروف , كما تعلمون سوف يتسلل الزورق بعيدا عن خفر السواحل التركية واليونانية, والموضوع يعتمد على المراوغة , سوف يكون لكل واحد منكم سترة نجاة يرتديها , ولكل فرد يسمح له بحقيبة صغيرة لا يتجاوز وزنها خمسة كيلوغرامات فقط , لان الزورق البلاستيكي كما تعلمون يجب ان يكون وزنه محدود , عددكم في الزورق سيكون بحدود اربعين راكبا , من بينهم نساء واطفال , انصحكم بروح التعاون , وان تكونوا مهيأين لاي طاريء لا سمح الله , انتم تشاهدون على الاخبار غرق بعض الزوارق بسبب عدم الخبرة لسائقيها , وهذا حصل لمهربين اخرين وليس نحن , الحمد لله الى الان لم تسجل اي حادثة معنا , الان تاخذون قسطا من الراحة وتستعدوا للمغادرة بعد منتصف الليل , كلها ساعات قلائل وتنتهي معاناتكم , وهناك فور وصولكم الى الطرف الاخر سوف تفاجئكم الحياة , وهي تفتح ابوابها وذراعيها تستقبلكم بفرح , هناك تجدون المستقبل باسما في وجوهكم , انتم شباب بحاجة لان تركبوا الصعاب حتى تضمنوا المستقبل , بعيدا عن الحروب والتهجير والسجون والاقصاء , صدقوني نحن نساعد العشرات من الشباب والعوائل حتى يبلغوا سواحل الامان , ويكفي ما ذقناه من معاناة وظلم نحن العراقيين , الان هلموا لتجهزوا حالكم , سوف احضر السيارة التي تقلكم الى البحر و لا تاخير عن الموعد .

قال فريد لنفسه وهو دالف نحو غرفته .. انا لا اخاف البحر , كذلك لست خائفا من الموت , عشت ايامي الماضية بتراكم الاحزان وتعاقب المصائب , يكفي ما اصابني في فقدان

هيفاء , ما عاد لي امل بالعودة الى الوطن , لابد ان اصل الى مكان القي فيه احمال نفسي , ولابدا حياتي من جديد , لعلي انسى .؟

## 26

الساعة كانت تشير الى الواحدة بعد منتصف الليل عندما خرج فريد من بوابة الفندق , كان هناك رجل وزوجته مع طفليهما , والى جانبهم يقف الشبان الثلاثة الذين سيشاركهم الرحلة , انظم اليهم فريد وسالهم عن السيارة التي ستقلهم الى مكان تواجد الزورق , اخبروه انها على وشك الوصول , ثم بعد لحظات وصلت السيارة نوع فان سوداء اللون , توقفت امام بوابة الفندق , وخرج منها عماد يطلب من زبائنه ان يدخلوا الى السيارة على عجل , ثم انطلقت من جديد تسير بسرعة وانعطفت نحو البحر , ثم راحت تسير مع الساحل باتجاه الجنوب , وبعد مرور نصف ساعة تقريبا , توقفت السيارة عند مكان ناء خارج المدينة , عندما نزل فريد ومن معه من السيارة , لفحتهم الرياح باردة يشم منها رائحة ملوحة البحر , اصطحبهم عماد يسيرون في الظلام بين الاشجار حتى وصلوا الى الشاطيء عند سن صخري وعر , حيث باقي ركاب الزوراق كانوا بانتظار وصولهم , باشر الجميع بالصعود على ظهر الزورق المطاطي الكبير , سمحوا للنساء والاطفال بالركوب اولا , بعدها صعد الرجال بالتتابع , الجميع كان

يرتدون سترات النجاة , ويعلقون على ظهورهم حقائبهم الصغيرة , انطلق بعض الاطفال بالبكاء مرعوبين , لان الزورق بدا يتمايل مع حركة امواج البحر , كان عدد الركاب قد بلغ الاربعين راكبا او اكثر , بدأ فريد يشعر بالرهبة تجتاح كيانه , ولايعلم لماذا انتابه هذا الاحساس الغريب , علما انه قضى طفولته وشبابه يعوم في النهر , الا انه تمسك بالحبل الجانبي للزورق ليتماسك في جلسته , اكتمل العدد على ظهر الزورق , ادار سائق الزورق المحرك , دفع عماد الزورق ليبعده عن الصخرة , حيث انطلق المحرك يدفع الزورق مبتعدا عن الشاطيء , لوح عماد لركاب الزورق متمنيا لهم سلامة الوصول , لوح الركاب وتعالت الاصوات بالدعاء والتشهد والاستغفار , راح الزورق يبتعد عن الشاطيء يرتفع ويهبط فوق امواج كالجبال , نظر فريد امامه في الظلمة التي تغطي الكون من حوله , لايرى الا بصيصا من نور ازرق باهت يلتمع فوق البحر , كان ضوء القمر الذي تباين كخيط هلالي بعيد , استمر الشعور الغريب يتوغل في كيانه , خيل له انه سمع صوت وداع يهمس في داخله , التفت نحو الشاطيء خلفه كأنه يرى هيفاء بهيئة حورية البحر تلوح له من بعيد , ودعها في نفسه , ودع خواطره , وداعا ايها الوطن وداعا هيفاء , وداعا مدينتي الحبيبة , انطلقت الدموع جعلتها الريح تغسل وجهه , ركاب الزورق كذلك تعالت اصوات نحيبهم , انهم يعبرون خط اللاعودة , يظنون انهم ذاهبون الى منفى اخر يقطع فيه المرء شريان واقعه الاول , ويخرج من جلد وطن ليدخل عالما جديدا يختلف فيه كل شيء , ابتعد الزورق اكثر صار قطعة بلاستيكية صغيرة تتقاذفها امواج كالطود العظيم ,

غاب الزورق بعد قليل في الظلمة , ثم بعد لحظات اختفى صوته تماما وبقي صوت الموج والريح .

قد تكون المغامرة وسيلة لاجتياز المحنة , او طريقا للفرار من الحروب والمجازر لكثير من الناس , وهاهم يهيمون في عرض البحر بذاكرة لم تعرف سوى القبول بالاحباط , وشهوة الفرار عن اوطان العذابات والالم , ان تتحول المغامرة الى قارب من البلاستيك معبأ بعشرات من الارواح الانسانية البريئة التي ترجوا النجاة .

## 27

مرت الايام , وهيفاء تلعب الاهواء بافكارها , كورق الشجر الذاوي على الطرقات , تلفه الريح وتلقي به مابين موضع واخر , حتى غدت محبطة تماما , كانت الام تحاول ان تهديء من روعها وتصبر عليها , الا ان هيفاء انتابها شعور مغاير , انها عاجزة عن الوصول الى فريد , او من يدلها على مكانه , عاد سامر الى البيت , وفور وصوله كان ينادي على هيفاء عند باب المنزل , رف قلبها مثل عصفور وركضت تستقبله , ... ابشري لقد حصلت على عنوان عائلة فريد , انهم يقطنون في عين كاوة شمال اربيل هناك في شقة فندقية , طارت هيفاء فرحا وابتهجت , صارت لا تعرف كيف تتصرف لهذا الخبر السعيد , تمنت لو سافرت اللحظة الى اربيل بحثا عن فريد , اخذت والدتها بالاحضان تقبلها شعورا بالسعادة , انبثق الامل في عينيها من جديد , بارك خالها الخبر متفائلا هو الاخر ... غدا في الصباح الباكر نستاجر سيارة خصوصي الى اربيل , وعمت الفرحة في قلوبهم متمنين لهيفاء دوام الابتسامة والفرح .

الطريق كان شاقا وطويلا , حيث العشرات من نقاط التفتيش , الكثير من التوقفات والاختناقات المرورية , اجراءات دخول المدن مضنية , الجميع عليهم ان يترجلوا من السيارة ويقفون في طابور طويل , توخذ لكل شخص بصمة الكترونية ثم تلتقط له صورة , يذهب بعدها نحو ضابط السيطرة ليدقق هويته , ليمنحه باج دخول مؤقت يحمل ختم حكومة كوردستان , عادوا جميعا الى السيارة ثم اجتازوا اخر سيطرة لدخول اربيل , تنفست هيفاء الصدعاء , قالت ... كاننا ندخل الى بلد اخر , هز الخال راسه مؤيدا , ... ما بيدنا شيء لقد انقلب هذا البلد راسا على عقب , لا اظن ان الامور تعود الى نصابها الاول , لقد انتهينا يا ابنتي .

استمرت سيارة الاجرة التي يستقلونها تسير في طرقات مدينة اربيل , الى ان توقفت اخيرا امام احد الفنادق في حي القلعة , نزل الخال وولده وهيفاء وامها , كانت الوقت قد دنى الى مغيب الشمس , كان على هيفاء ان تنتظر ليلة اخرى , ومزيد من الصبر حتى الصباح الاخر , ليتسنى لهم الذهاب الى عين كاوة , اجرى سامر اتصالا مع صديقه الكردي ريزكار , اخذ منه موعد ليقلهم صباحا الى عين كاوة حيث يسكن ربيع اخو فريد , حاولت هيفاء ان تنام تلك الليلة الا انها لم يغمض لها جفن الا لساعت قلائل , وفي تمام التاسعة صباحا كان ريزكار ينتظرهم بسيارته امام باب الفندق , انطلق بهم الى قرية عين كاوة , كانت الشقة التي يسكن فيها ربيع وسط السوق , في الطابق الاول من عمارة قديمة استاجرها ليقضي مع عائلته ايام نزوحهم , كانت هيفاء ترتجف وتشعر بخفقان قلبها حتى

ظنت ان ارجلها لا تقوى على حملها , كانت تخشى المفاجأة , ماذا لو فتح فريد الباب الان ورأني واقفة امامه , ماذا عساه يقول وكيف سيتصرف , ماذا عساني اقول له , هل ساقوى على هذه اللحظة , ساعدني يا الله , كانت مترددة وتشعر بفوضى الاحاسيس , لا تعلم هل هي في سعادة ام خوف من مواجهة اللحظة , فتح الباب , تفاجا ربيع بالضيوف , وازداد ذهولا عندما شاهد هيفاء وهي على قيد الحياة , بينما كان يظنها كالاخرين لقت حتفها في مجزرة مدرسة الخرجة , رحب بقدومهم ودخلوا الى شقته المتواضعة التي استاجرها ايام النزوح , بقي فيها بانتظار الحياة ان تعود في تكريت الى طبيعتها , بعد ان ولت عنها عصابات الارهابيين , دخلت زوجته ترحب بهيفاء وامها , ودار الحديث عن انقاذ حياة هيفاء وسلامتها , كانت عيناها تدور في المكان تبحث عن لوحة من لوحات فريد , قد يكون رسمها وعلقها على احد الجدران , كانت تبحث عن عدة الرسم كان لابد ان يترك سيبته وفرشاته واللوانه في زاوية ما في الغرفة , لكن لا اثر يدل على فريد , بدات تقلق كثيرا , وفكرت ربما يسكن في مكان اخر , ثم خشيت ان تسمع انه قد سافر الى خارج البلاد , توقعت كل الاحتمالات , بدأت تشعر بالضجر لم المزيد من الصبر , فقاطعت الحديث موجهة سؤالها الى ربيع , ... اين فريد , صمت الجميع يوجهون انظارهم نحو هيفاء , ثم التفتوا نحو ربيع بانتظار سماع الخبر الاهم والاجابة على سؤال هيفاء , بقي ربيع ينظر في وجهها كالذي يخشى من الاجابة على سؤال مصيري , اما زوجته فقد هربت الى المطبخ , ران الصمت لدقائق بينما انفعلت هيفاء بعد ان اصابها الوجل , ...

اين فريد , اخبرني ارجوك , كان الجميع يركزون النظر في وجه ربيع بانتظار ان ينبس بكلمة ويريح قلب هذه المسكينة ويدلها على فريد , الا انه بقي صامتا للحظات , ثم نهض وذهب نحو الغرفة , بينما بقيت هيفاء تنظر في الوجوه حيث احتبست الانفاس وانقبضت الاسارير في القلوب , عاد ربيع يحمل بيده حقيبة , فتحها امام هيفاء ليخرج اللوحة التي فيها صورتها , قال هذه تركها لك فريد , كان ينوي ان يقدمها لك في حفل تخرجك من الكلية , وهذا جواز سفره واوراقه , وصلتني قبل اسبوع , حيث غادرنا فريد الى عالم بعيد , نهض الجميع الا هيفاء كانت لا تقوى على الوقوف , وصرخت كالمجنونة , اين اخبرني اين هو الان الى اين سافر , لم يحتمل ان يصمد اكثر ربيع فاجهش بالبكاء , وقال .. ان فريد بقي يتعذب بعدك ثم قرر ان يهاجر بقي في تركيا ثم قرر فجاة السفر عبر البحر الى اوربا , لكنه غرق مع مجموعة من المهاجرين في عرض البحر , وهذه حقيبته التي عثروا عليها على الشواطيء التركية , سلموها للسفارة العراقية هناك , .. لقد غادر فريد عالمنا ولن يعود .

تعالت اصوات النواح في الغرفة بينما صرخت هيفاء وسقطت على الارض مغشيا عليها .

... من بين الاوراق التي عثر عليها في حقيبة الغريق فريد , رسالة عتاب معنونة الى الوطن مضمونها ... ( اي وطني الحبيب , لم اغادرك ابدا , بل انت من غادرتني , تدير وجهك عني , وتنظر نحو سارقيك وقاتليك , انت تطوق اللصوص والمجرمين , وترفع من شانهم لتدفع بهم نحو الثريا , وهم

يغطون بك في اوحال الذل والاهانات , كيف العتاب معك وكيف السبيل اليك , انت اما قاتلي , واما طاردي , واما سجاني في دهاليز الظالمين , كيف السبيل الى وطن ناصع كالشمس , ما بقي من كتابك الا صفحة عشقى وشوقي اليك , هلا بربك انتبهت الى ابناءك الضائعين ) .

, ثم طويت صفحة من صفحات ذلك التاريخ ولم يبقى من قصة هيفاء وفريد الا ذكرى لضحايا الوطن .

***

النهاية